رحلات جلفر

تأليف

سويفت

الكاتب الانكليزي

مترجم مع بعض التصرف

بقلم

عبد الفتاح صبري

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة من ملتزم الطبع

مؤلف هذه الاسفار هو مستر جلفر الرحالة المشهور وكان صديقاً حميماً لي منذ نعومة اظفارنا ويخال لى أن بيننا صلة رحم تلاشى ذكرها لقدم العهد

وبعد أن أقام هذا الرحالة ثلاث سنين في بيته بردريف مل تقاطر الوافدين عليه لشدة تساولهم وتشوقهم الى سبرغوره وهدم سياج سكونه فآثر العزلة ليقضي بقية العمر في راحة بال فاشترى ضيعة صغيرة في نيوارك باقليم نتنجهامشير مسقط رأسه وكان في الضيعة بيت منزو سكنه ليتخلص من فضول الاجانب والسائلين ونال بسكونه احترام جيرانه

وقد ترك كل اوراقه ومعلقاته في حوزتي عند ماعزم على مغادرة ردريف وأباح لي التصرف فيها بما أرى فقرأتها ثلاث مرات فوجدت اسلوبها سهلاً سلساً قد تحرى فيه الكاتب

الحكمة والصدق كما كان مشهوراً عنه في ردريف حتى كانت تضرب به الامثال وقد جرأني ذلك على نشر هذه الأوراق عسى ان يقبل عليها ابناء السراة والأعيان وسائر الشبان ساعات الفراغ بدل جعجعة السياسة وقعقعة الاحزاب

ولست بزائد حرفاً على هذه المقدمة الوجيزة خوف الملل والسأم وأترك المؤلف يأتي بطرف من حديث حياته فهو احلى أسلوباً وأكثر علماً

رتشارد سمبسن

الجزء الاول

رحلته الى ڤاليت

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الاول

كان لأبي ضيعة صغيرة بجهة نتنجهامشير وكنت ثالث اولاده الخمسة ولما بلغت الرابعة عشرة من العمر أرسلنى الى كلية أمانويل بجامعة كيمبردج فلبثت ثلاث سنين أواصل الدرس والمطالعة بكل همة واجتهاد غير أن ثروة أبي لم تمكنه بعد ذلك من الأنفاق عليّ في المدارس فأرسلني الى جراح ماهر في لندره اسمه دكتور بيتس لأتمرن على الجراحة واتلقن صناعة الطب فلبثت اربع سنين في شدة الضنك والتقتير وكلما وصلني درهم من أبي أنفقته في شراء كتب السياحة والملاحة وعلوم الرياضة اللازمة للملاحين لأني كنت أشعر بدافع نفساني يحملني على الدرس والدقيق في هذه العلوم حتى خيل الي أني خلقت لأن أكون ملاحا رزقه فيما وراء البحار

و بعد أن أتممت دراسة الطب على الدكتور بيتس جمع لي أبي اربعين جنيهاً لأذهب الى مدينة ليدن بهولاندا وأتخرج في صناعتي ولكني انقطعت لدراسة العلوم الطبيعية اكثر من سنتين ونصف سنة ولما رجعت الى بلادي ساعدني استاذي الدكتور بيتس في الحصول على مركز طبيب لسفينة تجارية اسمها سوالو ور بانها القبطان ابراهام بابل فقضينا ثلاث سنين في رحلات الى البحر الأبيض المتوسط ثم عدت فاتخذت عيادة طبية بلندره فاقبل عليّ المرضى لأن ذلك الأستاذ الكريم كان يدلهم عليّ ولكن مات لسوء حظي بعد سنتين فقل شغلي وكسبي معه ولم أجد معيناً ولا صديقاً يدل المرضى عليّ ويأبى شرفي ان استعمل وسائط الخداع والمكر والتدجيل التي اتخذها سائر الاطباء لهم شعاراً

وكنت قد تزوجت بابنة مستر أيدمند بيرتن ونلت بزواجها اربعمائة جنيه فاحتفظت بهذا المبلغ وجعلته منقلبي عند مساس الحاجة حتي لاتجرع زوجتي واولادى غصص العوز اذا لم يقيض الله لي ربحاً من صناعتي

ولما ضاقت بي السبل ويئست من الحصول على أسباب المعيشة في لندره تشاورت مع زوجتي وبعض اصدقائي وقر الامر أخيرًا على ان أركب البحار لعلي اجد من ورائها خيرًا فاستخدمت طبيباً لبعض السفن وسافرنا مرات الى جزائر الهند الشرقية والغربية جمعت في خلالها شيئاً من الثراء وكنت أصرف أوقاتي على ظهر البحر في قراءة الكتب المفيدة قديمها وحديثها وكلما رسونا نزلت الى البر لادرس أخلاق السكان وعاداتهم وتعلمت كثيرًا من اللغات بفضل حافظتي القوية

وبعد ان قضيت ست سنين في هذه الأسفار سئمت البحار وما عليها وتاقت نفسي الى السكينة والسكون فاكتريت بيتاً في مينا وابنج لعلي أجد من الملاحين اقبالاً على عيادتي ولكن خاب ظني وطاش سهمي ولبثت ثلاث سنين أقاسي آلام الفشل وقرس الحاجة حتى لم أجد بدا من ركوب البحار وملاقاة الأخطار وقد قيض الله لي سفينة عظيمة اسمها آنتلوب استخدمتني بوظيفة طبيب وكانت تحمل تجارة غالية تتجر بها في البحار الجنوبية

وفي يوم ١٤ مارس سنة ١٦٩٩ برزت السفينة من مرفأ

بريستل تشق العباب بصدر واسع وقلب ثابت قاصدة جزائر الهند الشرقية وبعد ان سرنا زمناً في بحر هادئ والريح تداعب القلوع وتدفع السفينة بخفة ولين كأنها طائر يطير على سطح الماء هب علينا أعصار تقشعر لهوله الأبدان واضطربت الرياح فغيرت وجهتنا وملنا عن الطريق السوي ووجدنا أنفسنا في الشمال الغربي من جزيرة فان ديمنز لاند في درجة ٣٠ من العرض الجنوبي وقد أنهكنا الجوع وأضنانا الكد والتعب وخارت قوانا ومات من الملاحين اثنا عشر رجلاً.

وفي اليوم الخامس من شهر نوفمبر — وهو مبدأ الصيف في تلك الاصقاع — بصرنا بصخرة عظيمة على مقربة منا فتملكنا الجزع واليأس وأيقنا أننا لابد هالكون لأن الريح اشتدت متجهة نحو تلك الصخرة المشئومة وقذفت بنا الامواج على ذلك اليم فاصطدمت السفينة صدمة صدعت اركانها وانقلبت وتكسرت حتى صارت أثر بعد عين

غير أني كنت قد تحوطت لهذا الحادث المروّع وأدركت ما كنا مشرفين عليه من الخطر فأعددت أحد القوارب وركبت

فيه مع خمسة من الملاحين وصرنا نجذف بما بقي لدينا من قوة ساعد وحسن صبر قصد الابتعاد عن حطام السفينة ألا ان الجوع والتعب أثرا تأثيرهما القاسي فكلت عزائمنا وأطرحنا المجاذيف وسلمنا انفسنا للقضاء فقد تحكم وقلنا (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) ولكن يظهر أنه كتب لنا الشقاء العاجل فأنا ما كدنا نفكر في ما آلنا حتى انقلب بنا القارب وتشتتنا على ظهر اللجج تطوح بنا كيف شاءت فشرعت اسبح بقوة مضاعفة لم اشعر بها من قبل لأن الخطر المحدق يجدد في النفوس عزيمة تتغلب على كلال الأعضاء وتعب العضلات وكنت كلما سرت مسافة خيل اليّ أن البحر قد قل عمقه لدرجة تمكني من تثبيت قدمي في قاعة لآخذ من الراحة مايقويني على متابعة السير غير أني كنت أرجع كل مرة بصفقة المغبون حتى أيقنت بالهلاك وأذعنت للقدر ورميت بنفسي مستشهداً وأذا بي واقف على قاع البحر ورأسي فوق الماء فحمدت الله حمداً وسرت نحو الشاطئ الذي تجلى أمامي كأنه خلق لساعته ولما بلغته لم أجد أثراً لبيت أو كوخ أو كهف استنجد بأهله وأسد غائلة الجوع وقد استولى عليّ التعب

وغلبني النعاس فلم أقو على مقاومته وألقيت بنفسي على الخلا وغرقت في سبات عميق لم استيقظ منه الا والنور قد ملأ الآفاق فحاولت النهوض فوجدتني مقيداً الى الارض بخيوط دقيقة للغاية ألا أنها لا تحصى ورفعت رأسي لأبصر ما حلّ بي واذا شعري الطويل مثبت بمثل تلك الخيوط فآلمتني الحركة ألماً شديداً وأدركت انه قد حلت بي داهية دهماء لا قبل لي

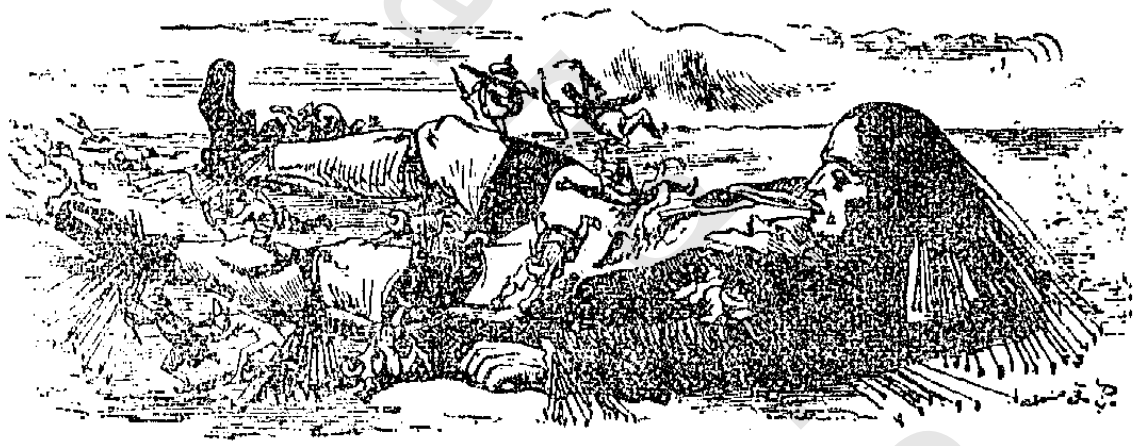

(جلفر وهو مقيد)

عليها لاني لم استطع تحريك رأسي ذات اليمين أو ذات اليسار فاستسلمت للقضاء حتى يأتي الله بأمر من عنده

وبعد هنيهة شعرت بحركة جسم حي فوق فخذي اليسرى وما زال سائراً نحو رأسي حتى بلغ رقبتي فالتفت اليها واذا

بحيوان دقيق لا يزيد طوله عن أصبعين الا أنه في صورة انسان من بني آدم يحمل في يديه قوساً وسهماً وعلى ظهره جعبة السهام وكنت أحس بعدد كبير من هذه الحشرات ماشياً على جسدي فذعرت لهذا المنظر المنكر وصرخت صرخة ارتجت لها أركان الارض فسابقت هذه الأشباح للهرب حتى سقط بعضهم عن بدني وربما تهشم في سقطته ولكن هذه المصيبة لم تثنهم عن استطلاع أمري فعادوا الى الصعود على صدري ووصل أكثرهم جرأة الى وجهي ورفع يديه مهللاً مكبراً كما ظننت وزعق بصوت عال قائلاً (هِكِينا دِيجُول) وتلاه رفقاوه بمثل تلك الصيحة فأردت الوقوف على ما قد جرى وبالأخص لأني كنت اريد النهوض من هذه الرقدة الشنعاء فاجتذبت ذراعي اليسرى بكل قواي حتى تقطعت الاوصال ودفعت رأسي بعنف الى الأمام فانحل بعض الخيوط واستطعت أن أدور بها يمنة ويسرة فأسرعت الاشباح الراكبة فوقي الى الفرار مرة أخرى وسمعت لغطاً عظيماً بصوت حاد ولهجة منكرة ثم صاح أحدهم قائلاً (تلجوفوناك) فأصابني أكثر من مائة سهم

سددوها الى يدي الخالصة أحسست عندها كأني أوخز بأبر من نار ثم أطلقوا سهامهم مرة أخرى في الفضاء أرهاباً لي ولا بدّ أن يكون بعضها قد وقع عليّ في نزلته ألا أني لم أشعر بها مطلقاً لخفتها ودقتها

ولما رأيت أن القوم قد ائتمروا بي وعزموا على أهلاكي اما بسهامهم هذه أو بتأثير الجوع والعطش أخذت أئن وأتوجع مما جرى وحاولت التخلص من قيودي مرة أخرى واذا بمطر من السهام تساقط عليّ وشرع بعضهم في تجريحي بسيوفهم ولكن حال دون مبتغاهم دثار من جلد كنت لابسه لم تقده تلك السيوف الدقيقة

ولكي ينقطع عني أطلاق هذه السهمات التي كانت تؤثر فيّ تأثير البعوض اللذاع رأيت أن ألزم الصمت والسكينة حتى يطمئنوا من جهتي ومتى أقبل الليل أعالج بيدي اليسرى المفكوكة تلك الاربطة التي أرقدتني هذه الرقدة المؤلمة المخزية ولم أخش تكاثر الأهالي وتجمعهم وهم بهذا القد والجرم لأني قادر على أهلاك أكبر جيوشهم تحت أقدامي مهما كان عددها

ألا أن الامور جرت على غير ما كنت أؤمل فأتى بعد قليل سمعت جلبة عظيمة على بعد ثلاثة أمتار مني فالتفت واذا بالارض قد غاب أديمها واحتجب لكثرة المتجمعين من أهالي هذا

(خطيب من ليليبت)

البلد وعلى مقربة مني رأيت عمالاً يشتغلون في أقامة منبر عال جداً تحفه السلالم من جانبيه ثم ارتقى هذا المنبر أحد كبرائهم بكد وعناء حتى صار محاذياً رأسي وأنا راقد وتكلم بصوت جهوري كدت لا أسمعه مع ان البعد بيننا لم يزد عن قيد شبر وهكذا كانت أصواتهم مناسبة لأجسامهم كيلا يضطرب غشاء آذانهم بشيء لا تحتمله ثم ألقى خطابة طويلة كما تبينت من أشاراته الىّ والى الحاضرين من قومه غير أني لم أفهم كلمة مما قال وقد دعاه لين خلقه أن يأمر بحل وثاق شعري من الجهة اليسرى حتى أستطيع الالتفات اليه فألفيته رجلا متوسط العمر يزيد طولا عن بقية رفقائه وفي خدمته ثلاثة آخرون وقف اثنان على جانبيه والثالث خلفه يحمل أهداب جبته وكانت أشاراته وحركاته تمثل خطيباً متدرباً على الخطابة وصوته محكم القوة يتغير كثيراً بتغير المواضيع يمتلئ شدة وعنفاً وخشونة في مقام الوعيد والتهديد ويرتد ليناً مؤثراً عند الوعد والأشفاق فوجدت أن لا مناص من الرد على هذا الخطيب الأديب بكلمات ملؤها الخضوع والخنوع

والخشوع لمقامه وقوته وصرت أتكلم كأني أهمس همساً حتى لا ترتعد فرائصه لهول صوتي ورنينه ورجوته بالأشارة — لأني لم أفهم مقاله وطبعاً لم يفهم هو مقالي — أني في حاجة شديدة الى الطعام وأن الجوع قد تحكم واستبد ولا مرد لحكمه فأدرك طلبتي وترجل عن منبره العالي وأصدر أمراً كريماً فأسرع الخدم والعمال وألقوا نحو عشرين سلماً على جنبي صعد عليها أكثر من مائة خادم يحملون آنية مملوءة باللحوم الدقيقة الجرم المختلفة الاشكال كأنها ألاعيب أطفال فكنت أرى الفخذ والكتف والصدر ممثلة أحسن تمثيل الا أنها لم تزد عن فخذ الضفدعة حجماً ومع هذه اللحوم كثير من الطيور والحيوانات كلها بهذا الجسم الدقيق فالتهمتها من بين أيديهم وأخذت في كل لقمة أربعة أو خمسة من حيواناتهم هذه مع ثلاثة أرغفة فدهش الحاضرون وذعروا وخافوا أن آكلهم هم أيضاً لانهم لم يدركوا أني لست بربرياً متوحشاً آخذ لحم الانسان طعاماً ثم طلبت شربة من ماء واذا باثنين من السقائين يحمل كل واحد قربة فوضعوا فوهة احداهما في فمي وحلوا شناقها فتدفقت في

حلقي شربة من نبيذ حلو المذاق خفيف المزاج وكذلك فعلت بالثانية ثم طلبت المزيد من هـذا الخمر اللذيذ فلم يجيبوا طلبي لانهم لم يعدوا ألا قربتين

و بعد فراغي من الأكل والشرب كنت أؤمل أن ينزل هؤلاء القوم عن صدري و بطني لاني أشمئز عادة من الذباب أو ما يشاكله من الحشرات ولكنهم ما كادوا يفرغون من خدمتي حتى أخذوا يرقصون على صدري و يصيحون و يهللون لما رأوا من مدهشات الابصار والبصائر رأوا جبلاً في شكل انسان يأكل و يشرب في مرة ما لا يستطيع أكبر جيش منهم أن يأكله في شهر وأخيراً انتهى طربهم وأشاروا الىّ أن ألقي بالقربتين الفارغتين الى الأرض وما كدت أفعل حتى صاح كثير منهم قائلا (هكيناديجول) مرات عديدة فتفرقوا عني خشية الأذى من سقوط القربتين

وكانت نفسي تحدثني بأن أقبض على أربعين أو خمسين منهم بين يديّ وأدفعهم الى الارض كيلا يكون صدري ميداناً للهو ومرزحاً للطرب ولكن حسن معاملتهم لي وهـذا السرف

والبذخ في أطعامي أبعدت عني تلك الخواطر الجهنمية الفظيعة سيما بعد ما رأيت من شجاعتهم واقدامهم وجراءتهم النادرة التي جعلتهم يمشون على صدر غول أو مارد مثلي يستطيع أن يبيدهم جميعاً وطئاً تحت الاقدام في دقائق قليلة

وبعد برهة قصيرة حضر سفير عظيم الشأن من بلاط جلالة ملكهم فتسلق على اكتاف حجابه وخدمه والعرق يتصبب من جبينه لشدة الكد والمشقة حتى وصل الى أخمصي وأقبل يمشي نحو رأسي بكل بسالة ورباط جأش فقطع المسافة في أكثر من ربع ساعة يتبعه فوق العشرة من حاشيته ثم قدّم لي الأوراق والمستندات التي تثبت بعثته مبصومة بالخاتم الملكي وألقى خطبة لبث فيها أكثر من عشر دقائق كان في أثنائها يشير الى جهة بعيدة علمت بعد ذلك أنها عاصمة هاتيك البلاد وان الأمر قد قر على نقلي اليها وكانت المسافة تقرب من نصف ميل فأجبت على قدر الحال بلغتي ولو انه لا يفهمها كي يعلم أني لا أهمل ما يفرضه الأدب من الواجبات وأخيرًا رفعت يدي المفكوكة من فوق رؤوسهم ببطء واحتراس شديدين لئلا يصيبهم أذى

من تيار الهواء الناتج عن الحركة وأومأت الى رأسي وذراعي اليمنى وسائر وثاقي طالباً الفكاك فأشار بأنه أدرك بغيتي وظهرت على وجهه علامات الغضب وعدم الرضى كأنه أراد أن يفهمني اني معتبر أسيراً بين أيديهم ولكنه هدأ روعي كما يظهر من حيث المعاملة والطعام حتى لا يحملني اليأس على الانتحار أو الانتقام

ولشدة ألمي من هذه الرقدة حاولت التخلص من وثاقي فانصبت عليّ سهامهم بكثرة هائلة ووخزتني وخزاً شديداً في وجهي ويديّ فأدركت حينئذ ان القوة البدنية والضخامة الجسدية لا تجديان أمام العقل والحكمة والروية وأثرت بأني سأتبع السكون التام وأبيح لهم حرية التصرف فيّ بدون مقاومة ولما ان استوثق السفير من استسلامي وحسن قصدي نحوهم جميعاً انصرف عني منشرح الصدر هادئ البال وصاح قائلاً (ببلم سلان) فأسرع عشرات من الناس وحلوا وثاقي جنبي الأيسر حتى استطعت أن أضطجع على الأيمن بعد ان دهنوا وجهي ويديّ بمرهم ذكي الرائحة أزال ألم وخز سهامهم ولسعها وقد

تمكنت مني الراحة حينئذ وتملكني النعاس فنمت مدة طويلة ولما أفقت وجدتني محمولاً على مركبة طويلة وفي غير مكاني الأول وعلمت فيما بعد أنهم خلطوا الشراب بمرقد كيلا أعوفهم عند نقلي الى العاصمة

ويظهر أنهم حالما علموا بوجودي على اليمّ وأنا نائم أول مرة أوفدوا بريداً الى جلالة الملك ليبلغه ذلك الحادث الجلل ويتلقى الأوامر فيما يكون من شأني فأصدر أمرا بشد وثاقي بهذه الكيفية البديعة وصنع مركبة تحملني الى العاصمة بعد ما جاد بالغذاء اللازم من جيبه الخاص ولا مراء في ان هذا العمل العظيم يدل بأجلى بيان على حكمة جلالة الملك وكرم سجاياه ولا يظن أحد أن أمراء أو بايفعلون فعله اذا وقعوا في مثل تلك الظروف الغريبة لأن طيشهم وجبنهم يحملهم على محاولة الفتك بمن يحل ببلادهم ضيفاً ما دام من غير جنسهم وتكون النتيجة وخيمة عليهم لا محالة لأن شخصاً في جرمي وقوتي بالنسبة لأهالي تلك البلاد يستطيع ان يفك قيوده ولو بعد كد وعناء ويعيث في الارض فساداً يهلك الحرث والنسل ويقتل الاحياء

بالألوف فلو لم تكن الحكمة و بعد النظر رائد ذلك الملك العظيم لعرّض بلاده وملكه للخراب

وهؤلاء الناس على علم عظيم بالعلوم الهندسية لا سيما الآلية وملكهم كثير التشجيع والميل لكل العلماء العاملين فترى فى بلاده المركبات الضخمة الهائلة تحمل الأشجار من الأحراش الى المصانع البحرية وكثيرا ما زادت الشجرة عن المترين طولا وهي تحمل على عجلة واحدة يجرها عشرة من جياد الخيل التي لا تزيد عن الجراد جسما

ولهذه المهارة النادرة لم يتردد الملك فى اصدار أمره الى المئات من النجارين وغيرهم من الصناع بعمل أكبر آلة يتصورونها لتحملني الى مقر حكومته فأنجزوا أمره في أربع ساعات وأتوا بالعجلة الى المكان الذي كنت فيه نائما ولكن المسألة التى شغلت أفكار كبار مهندسيهم زمناً ليس بالقصير أمر رفعي على تلك العجلة كامل الجسد بدون احتياج الى تفكيكي قطعاً قطعاً واعادة تركيبى ثانية لأن ذلك ربما طمس بعض معالمي فيفقد العلم والعلماء اكتشافات ربما نجم عنها أكبر الفوائد لجنسهم الضعيف

وأخيراً قر الرأي على أقامة ثمانين عموداً ارتفاع الواحد قدم كاملة ثم لفوا أربطة عديدة حول ذراعيّ وفخذيّ وقدميّ وسائر بدني وغرزوا صنارات لا تحصى في هذه الأربطة وشدوا الصنارات الى حبال صفيقة جداً لتحتمل تلك المقاومة العظيمة وركبوا بكرات على الأعمدة ليسهل على تسعمائة العامل المختارين لهذا العمل اجتذاب جسدي ورفعه حتى يحاذي سطح المركبة فيقذفوني عليها بسهولة وهكذا تمّ لهم الأمر. ثم أتوا بألف وخمسمائة جواد من أضخم جياد الاصطبل الملكي وأقواها لتجر العجلة وما عليها وسار هذا الموكب الحافل نحو العاصمة وكانت على بعد نصف ميل تقريباً كما قدمنا الا أني استيقظت بعد مسيرة أربع ساعات بكيفية عجيبة

وذلك ان أحد ضباط الحرس كان كثير الجراءة والمزاح فتمشى فوقي مستبسلا حتى وصل الى أنفي فاستوقفه ارتفاعه والمغارتان اللتان على جانبيه فأدخل رجله في احداهما ليكتشف دخيلتها فتأثرت أعصاب الأنف بهذا التنبيه وعطست فوقع الضابط على ظهره من تأثير الرصاص المتطاير من أنفي ولكيلا

يفتضح الامر وتسوء العقبى انقلب ذلك البطل الى مركزه دون أن يشعر به أحد الا بعض أخصائه المقربين

ثم والينا السير بقية النهار حتى أدركنا الظلام فوقف الركب واستعد للمبيت ووكل بحراستي طول الليل جيش عدده ألف مقاتل نصفهم يحمل المشاعل والأنوار والنصف الآخر مدجّج بأحدث السلاح وما بزغت الشمس حتى بدأنا بالسير مرة أخرى وقطعنا مسافة هائلة كلّت لها الناس والخيل الى أن صرنا على بعد مائتي ذراع من العاصمة فألفينا جلالة الملك قد أتى في موكبه المهيب لملاقاتنا في الطريق ولكن أتباعه ومستشاريه نصحوه بعدم المجازفة والصعود فوق بدني لئلا يصيبه أذى أو على الاقل اضطراب يعكر مزاجه اللطيف

وكان وقوف مركبتي أمام هيكل عتيق اشتهر بأنه أكبر بناء في عموم القطر غير أن الاهالي هجروه لانه تجسس بوقوع حادثة قتل فظيعة فيه وجردوه من كل أثر للزخرف والأثاث وتركوه قاعاً صفصفاً يأوي اليه اللصوص والاشقياء فأمر الملك أن يكون هذا منزلي فتأملت فيه وأذار تاجه الشمالي يبلغ أربع

أقدام في الارتفاع وقدمين اثنتين في الاتساع وعلى جانبي هذا الرتاج نافذتان مرتفعتان عن الارض بقدر أصبعين فأدخل حدّادو الملك في النافذة اليسرى احدى وتسعين سلسلة كالسلاسل التي يشد النساء ساعاتهن ألا أن طول الواحدة ست أقدام تقريباً ولفوها حول ساقي اليسرى ومكنوها بستة وثلاثين قفلاً حتى لا أستطيع الفرار

ويقابل هذا الهيكل برج شامخ ارتفاعه خمس أقدام قد صعد جلالة الملك واتباعه الى ذروته حتى يروني وهم على بعد عني وفي مأمن مني وخرج من الأهالي في ذلك اليوم ما يربو على مائة الف نفس ليشاهدوني لان صيتي قد طبق الآفاق وتسلق فوق جسدي عدد لا يقل عن عشرة الآلاف ولكن الملك رق لحالي وأصدر أمراً عالياً يحظر على الناس الصعود عليّ ومن خالف كان جزاؤه الاعدام جزاء وفاقا

ولما انتهى الحدادون من اغلاق أقفالهم أبيح لي النهوض والحركة بعد ان قطع جميع وثاقي فقمت واقفاً وسط هذه الحشرات الدقيقة وتمشيت ذهاباً وجيئة حول الوتد الذي نصب

٢٦

على بعد أصبع من منزلي حتى أتمكن من الدخول والرقاد عند الحاجة

obeikandl.com

الفصل الثاني

لما وجدت نفسي ممتعاً بحرية الوقوف والحركة تأملت فيما حواليّ فرأيت منظرا بديعاً يجتذب الابصار ويشرح الصدر الحزين تمتد الحقول النضرة فى جميع أرجائه فيتبعها البصر على بعد مرماه فيرتد دون أن يدرك لها نهاية وهي مقسمة الى عدة مزارع لا يزيد مسطح الواحدة عن أربعين مترا مربعاً على العموم تفصلها أرفات خضراء كثيرة الازهار فكانت تبدو كأنها أحواض عدة في حقل واحد من حقولنا الشاسعة . وكنت ارى الاحراش والغابات مكتظة بالاشجار العظيمة التي لا يزيد ارتفاع اكبرها عن سبع أقدام . ثم تأملت عن يساري واذا العاصمة قد تجلت بخلاياها العامرة — لان مساكن هؤلاء الأقوام لم تظهر لى كالبيوت — وخيل الىّ أني أشاهد صورة مدينة

مرسومة على ستار مرزح من مرازح التمثيل

وعند ما فرغت من مشاهدة معالم مدينتهم نزل جلالة الملك من البرج الذى كان يرصدني فيه وتجلى أمامي على جواد مطهم من خيار الخيل فذعر الحصان لرؤية جبل مثلي يتمشى ويتحرك وشب وقمص حتى كاد الملك يسقط عن ظهره لولا مهارته الفائقة في الركوب فتسابق الخدم وأمسكوا بزمام الجواد حتى ترجل الملك وتأملني بكل أمعان يشوبه الدهش والاستغراب وكانه أحب أن يراني أتناول الطعام كما نشاهد نحن الحيوانات المفترسة في حدائقنا ساعة الأكل فأشار الى الخدم والطهاة فأقبلوا يدفعون أمامهم ثلاثين عجلة مشحونة بالغذاء والشراب فأقبلت على عشرين منها واكلت حمل كل عجلة في ثلاث لقمات ثم أفرغت الشراب من الاقداح في احدى العجلات وشربت المجموع في جرعة واحدة فانبهر الحاضرون لذلك المشهد الرائع لا سيما الأمراء والاميرات

ثم تاقت نفسي الى تعرّف شخص الملك وأوصافه الجسمية لما رأيت منه هذا الاحتفاء والسخاء فرقدت على جنبي ليتحاذي

وجهي ووجهه فرأيت قامته تفوق سائر قومه بمقدار عرض ظفري حتى خافه القاصي والداني وأقر له بالقوة التي لا تمارى اما تقاطيع وجهه فقد طبعت بسيما الشهامة والأقدام وكان أشم الأنف مقنطره قمحي اللون معتدل القامة متناسب الاعضاء رزيناً في الحركة والنطق بسيط اللبس حسن الهندام بين الطراز الأوربي والأسيوي الا أن فوق رأسه تاجا من الذهب الابريز مرصعاً بالجواهر الكريمة الوهاجة وسيفه مجرد في يده ليدفع به عن نفسه اذا توقع مني الوقيعة وقد أحاط به خلق كثير من كبريات النساء وأعاظم الرجال بكسوة التشريفات المزركشة المزينة فتمثل لي هذا الجمع كأنه أفريز لباس أحدي الغانيات في مرقص قصور السراة الاغنياء

وكثيراً ما وجه لى جلالة الملك الخطاب بلغته وحسن بيانه ولسوء حظي ما كنت لأفقه له قولا ولكن الأدب كان يأبى الا أن أجاوبه على جميل تلطفه وحسن رعايته بلغتي أنه لا يفهمها . ولما أدرك أن العرف ضائع بيننا لعدم التفاهم أطرق مليا يفكر في هذا الموقف العظيم فانخفضت قامته نحو نصف

سنتيمتر ثم رفع رأسه والبشر والانشراح والابتهاج ملء عينيه كأنه كولمبس عند ما ابصر أرض أمريكا لأول مرة وأشار الى كبار أحباره وقسيسيه فأقبلوا عليّ يحادثوني بلهجات ولغات متباينة متنوعة فأجبتهم بكل لغة أعرفها وكنت ملماً بغالب لغات أوربا وآسيا فلم يزدهم ذلك الا دهشة وحيرة واخيراً أنقلبوا الى مليكهم يتعثرون بأذيال الخجل من الفشل ثم قفلوا جميعاً تتبعهم الحاشية والذوات والأعيان بعد أن رتبوا عدداً كبيراً من رجال الشرطة والعسكر لحمايتي من اندفاع الغوغاء وشرهم خصوصاً وأن بعضهم قد رماني بالنبال ولولا لطف الله وعنايته لضاعت احدى عينيّ ظلماً وعدواناً الا أن رئيس الحرس لمح ما يقترفه هؤلاء الاشرار من الأذى والجناية فأمر بالقبض على

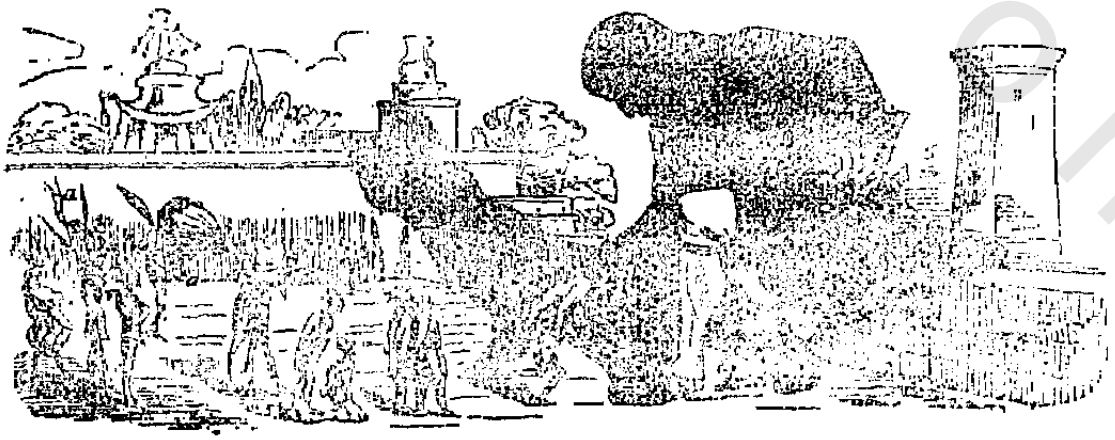

(عقاب مثيرى الفلاقل)

مثيرى الحركة ومدبريها وبعد شد وثاقهم ألقوهم بين براثنى لأنكل بهم تنكيلا فأخذتهم جميعاً في قبضتي وهم في رعدة من الخوف والفزع ووضعت خمسة في سيالتي وأبقيت السادس في يدي موهماً أني آكله أكلاً بعد مضغة وتفتيت عظامه بين أنيابي الهائلة فزعق ذلك المسكين زعقة رعب وهلع انخلعت لها قلوب جميع الحاضرين فرقّ قلبي لحاله ولا أنكر أني خشيت بأس ذلك الجمع المكتظ اذا تكاثروا عليّ فما كاد يصل الى فمي حتى قرضت حبل وثاقه وأنزلته الى الارض فانطلق كالسهم يصيح ولا يعي والناس من حوله يضحكون ويصفقون استحساناً لفعلي واستهزاء بذلك الغر الجبان واستمر هذا الزهو والطرب كلما أطلقت واحداً من سكان جيبي حتى أخليت سبيلهم جميعاً فانصرفوا عني بسلام وتركوني أدبر كيف أنام لأن بيتي كان قاعاً صفصفاً لا فراش فيه ولا غطاء فاطرحت على الارض وتوسدت الثرى وتضرعت الى الله أن يحفظني من شر هؤلاء الشياطين

وما زلت أنام والأرض فراشي مدة أسبوعين لا أجد فيهما راحة الى أن فكر الملك في أمري فبعث اليّ بالنجادين والخياطين

تتبعهم مركبات فيها ستمائة فراش من فرشهم فصنعوا لي حشية طولها مائة فراش وعرضها خمسون وسمكها أربعة وكذلك عملوا الملاآت والاغطية بهذا التقدير الدقيق فأصبت بعض الراحة حينئذ ولكني مع هذا كنت أشعر ببيس الارض وصلابتها الى ان اعتاد جسمي تحملها بعد زمان طويل

ولقد ذاع صيتي وانتشر في كل صقع من أصقاع تلك البلاد المتنائية الأطراف ونسج على قصتي الغريبة كثير من الحكايات والخرافات التي حار في فهمها كبار العلماء والمفكرين وصدقها كل البله والاغبياء والمخرفين شأن الناس في كل زمان ومكان كلما سمعوا خبرا او قصة زادوها حواشي وتلفيقات في انتقالها بين الافواه فهرع الناس ينسلون من كل حدب ليشاهدوا عياناً تلك الأعجوبة الفريدة التي قذفها اليم على سواحل بلادهم حتى هاجت لها القلوب وزاد على غرائبها وعجائبها القصاصون والناقلون فهجر الفلاحون حقولهم والعمال صانعهم وأشغالهم وهاجروا جميعاً الى العاصمة ليمتعوا الطرف بمدهشات الأبصار حتى ساءت الحال ووقف دولاب العمل لولا أن

تداركهم ملكهم الحكيم بالأوامر الصارمة التي تحتم عليهم الأوبة الى بلادهم ماداموا قد رأوني مرة واحدة الا من كان مضطراً فيجوز له البقاء بعد الحصول على جواز رسمي من ديوان الملك فانتهز موظفوه فرصة هذا الامر الكريم وفرضوا الضرائب الباهظة والرسوم الغالية على كل طالب حتى ملأوا خزائنهم من أموال العباد بهذا الفساد

وفي هذه الأثناء توالى انعقاد مجلس الوزراء للبحث فيما يكون من شأني وأصدار الأوامر أما بأبادتي عن وجه الارض أو الأبقاء عليّ عسى أن أنفعهم أو يتخذوني عوناً عند وقوع الكوارث والنوائب خصوصاً وان البلاد كانت خارجة من غمار حرب عوان قامت بينها وبين الدولة المجاورة فعارض وزير المالية في الابقاء عليّ محتجاً بان معيشتي تكلفهم من النفقات الطائلة ما لا يطيقون وربما نشأ عن غذائي قحط أو مجاعة تفتك بالقوم فتكاً ذريعاً

وبينما هم يتشاورون ويتناقشون وقد اشتد وطيس الجدال اذ أقبل ضابط حرسي وقص عليهم ما رأى من شهامتي

ومروءتى عند ما وقع الاشقياء في قبضتي فرجحت كفة الميزان في جانبي وأصـدر جلالة الملك أمرًا عالياً يقضي على الاهالي بتوريد ما يلزم لطعامي يومياً وقـد تقرر لي حينئذ خمسة ثيران وأربعون شاة وكثير من الخضر والبقول وما يناسبها من الخبز والنبيذ والأشربة الاخرى فكانت ضريبة قاسية أن منها الناس وضجوا فيما بعد لانهم في باديء كانوا قد أسكرتهم خمرة التيه والاعجاب باقتناء أعجوبة عظيمة مثلي يفاخرون بها سائر الممالك والبلدان

وكذلك شأن الناس والملوك والحكومات في كل بقاع الارض يستنزفون مال البلاد وثروتها لغير ما منفعة سوى السرف والبذخ والشهرة الفارغة اقتناء الأعاجيب والدفائن واللقى فضلا عن الحيوانات والنباتات والحجارة و يشيدون القصور الشاهقة والحدائق الغناء مع ما يتبع ذلك من النفقات الفادحة التي هم أحوج اليها فى اصلاح الشئون العامة المثمرة التي تجني الأمة من ورائها الهناء والرخاء ترى دور التعليم في كثير من البلدان كأنها أطلال بالية مع ندرتها ووفرة المتاحف المشيدة الفخمة ترى أرباب العاهات والمعوزين والمرضى في

الأزقة والشوارع يتضورون جوعاً هائمين في طول البلاد وعرضها يستدرون الرحمة والأحسان ولا ينالونهما الا بشق الأنفس واراقة ماء الوجوه كل هذه المصائب والويلات التي تتفتت لها الأكباد وينفطر لرؤيتها الفؤاد لأجدر وأولى بالانفاق من بناء القصور للحيوانات والحجارة والجثث البالية اذا كان مدبر المال حكيما رشيداً يعرض عن التفاخر بالأمور التي لا تفيد ليتمتع الأمة بالسعادة الحقة والرفاهة الدائمة

ولم يقتصر الأمر العالي على هذه النفقات بل عين لخدمتي ستمائة نفس برواتب عظيمة أقيمت لهم البيوت والمساكن حول الهيكل ثم أمر ثلاثمائة خياط ليخيطوا لي كسوة من طراز لباسهم وانتدب ستة من مشاهير العلماء اللغويين ليعلموني لغة البلاد كي أستطيع أن أمدهم بما لديّ من الرأي والفكر اذا كنت مفكراً ثم صدر أمر وزير الحرب بأن تراض خيل الجيش والحرس أمامي يومياً الى أن يعتادوا ذلك المنظر الهائل فلا يعودون يذعرون كلما رأوني

وفي ثلاثة أسابيع برعت في تعلم لسانهم وكان يعودني

جلالة الملك آونة بعد أخرى ليقف بنفسه على درجة تقدمي وادراكي وقد سر كثيرًا لما وجدني أستطيع أن أحادثه ولو قليلا وكانت أول طلبة لي منه تحريري من تلك الاصفاد التي قيدتني الى مكان ضيق كهذا فأجاب بأنه لا يفعل الا بعد أن أقسم يمين الطاعة والأمانة والا أحدث ضررا أو فسادا في البلاد وأوصاني بالصبر والأناة حتى يرى هو وحكومته من حسن سلوكي وسيري ما يحملهم على هذه المجازفة العظيمة ثم طلب مني أن أبيح لبعض المفتشين تفتيشي وحصر ما أحمله في جيوبي لئلا يكون في حوزتي أسلحة أو عدد مهلكة تدمر البلاد وأهلها ووعدني برد ما يؤخذ مني متى شئت العودة الى بلادي فأطعت أمره كرها وأدخلت الرجلين في جيوبي واحدًا بعد الآخر وكان معهما قرطاس وحبر وقلم فكتبا محضرا بكل الموجودات بعد عناء شديد واستفهام كثير وهذا نص المحضر

بعد البحث الطويل والتنقيب الدقيق في جوب الرجل الجبل وجدنا ما هو آت

(١) قطعة قماش كبيرة للغاية تصلح لان تكون بساطا جميلا

فى حجرة الاستقبال الكبرى بالقصر الملكي

(٢) صندوق عظيم من اللجين مغطى بغطاء من نفس هذا

(الجرد)

المعدن النفيس لم نقدر على حمله فطالبنا من الجبل فتحه ونزلنا فيه

فوجدناه مملوء بأكوام من التراب هب هباؤها فى الهواء عند دخولنا فجعلتنا نعطس عطساً شديدا مؤلما

(٣) اضبارة هائلة من مادة بيضاء سخفة مطوية على بعضها وفى طول ثلاثة رجال كانت مربوطة بجنزيرمتين وعليها رموز سوداء يحتمل أن تكون حروف كتابة

(٤) آلة عظيمة مركب من ظهرها عشرون عمودا بطول الأعمدة القائمة فى فناء القصر الملكي يحتمل أن يستعملها ذلك الجبل فى ترجيل شعره

(٥) قضيب مجوف من الحديد مركب فى قطعة خشب متينة وأطول من القضيب وفى أحد طرفيه قطع من الحديد عظيمة بارزة ومشكلة بأشكال مختلفة لم نفهم ما هي

(٦) قطع مستديرة بعضها من الفضة والبعض الآخر من معدن أحمر لم نقدر على رفعها أنا وزميلي الا بعناء وجهد

(٧) عمودان أسودان بشكل غير منتظم أحدهما مغطي لم يظهر لنا باطنه أما الآخر فظهر لنا في طرفه الأعلى شيء أبيض مستدير وضعف رأسينا حجماً وداخل هذين العمودين كتلتان

من الصلب خشينا أن تكونا من آلات القتل أو التدمير فطلبنا منه ابرازهما ففعل وقال انه يستعمل احداهما في حلق لحيته والأخري في تقطيع اللحم عند الأكل

(٨) جنزير عظيم من الفضة معلق من أحد جيوبه وفى نهايته آلة عظيمة عجيبة نصفها من الفضة والنصف الآخر من مادة شفيفة ظهر لنا فيها رموز غريبة فمددنا يدينا لجسها فحالت دون ذلك تلك المادة الشفيفة ثم أدنى هذه الآلة من آذاننا فسمعنا دوياً كدوي الساقية أو الطاحون ولا ندري اذا كانت حيواناً أو إلهاً يعبد لانه قال لنا انه لا يعمل عملا بغير أن ينظر اليها وانها التى تحدد أوقات جميع أعماله

(٩) شبكة عظيمة تصلح للصيادين ولكنها تفتح وتقفل كأكياس النقود وفيها قطع كثيرة من معدن أصفر رنان لو كان ذهباً لأغنى البلاد عدة سنين

(١٠) حزام عظيم حول وسطه مصنوع من جلد صفيق قد علق فى جانبه الايسر سيف بطول خمسة رجال وفى الايمن جوالق عظيم مقسوم الى جزئين فى أحدهما كرات كبيرة من

معدن ثقيل حجم رأسنا وفى الآخر حبات صغيرة لا تحصى عدا

المتقدم ذكره احصاء دقيق مضبوط لجميع ما وجدناه فى

الرجل الجميل الذي عاملنا بكل لطف ودعة

تحريراً فى اليوم الرابع من القمر التاسع بعد الثمانين من

حكمكم الميمون الامضاء

كلفرن فريلوك مارسى فريلوك

وبعد ان فرغ أحد المفتشين من قراءة هـذا الاحصاء على مسامع جلالة الملك صدر الامر بأن يضرب حولي نطاق مركب من ثلاثة آلاف مقاتل شاهرين السلاح ثم طلب مني ان اجرد حسامي ففعلت فأبرق النصل بريقاً شديدا لانعكاس أشعة الشمس عليـه فضج الحاضرون أكباراً وأعظاماً ألا الملك فأنه كلفني أن أعيده الى غمده وألقيه على الارض وأن أشرح فائدة عمودي الحـديد المجوفين فبينت الغرض منهما بقـدر استطاعتي ومعرفتي لغتهم ثم حشوت احدهما بالبارود واطلقته في الهواء فصمت الآذان لهول الصوت ودويه ورجعـه وخر كثير من الناس في غشية من الخوف والفزع ثم ألقيت هذين

السلاحين على الأرض وأخرجت الساعة ليراها الملك فأمر بأن يحملها اثنان من الحمالين على اكتافهما بعد ان يعلقاها

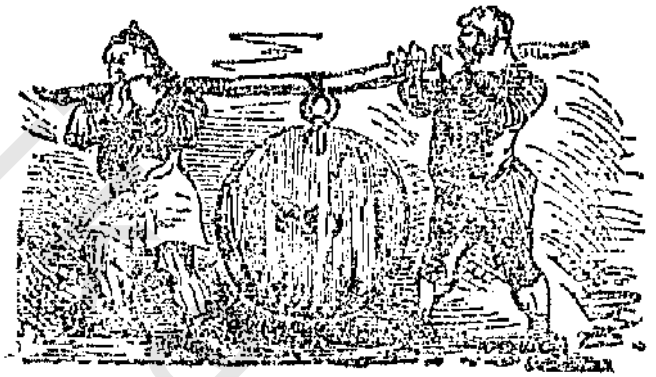

(ساعة جلفر محمولة على الاكتاف)

وسط قضيب من الحديد ثم سلمت الدراهم والدنانير التي كانت معي وكذلك جميع امتعتي فأمر الملك بردها الىّ ما عدا الاسلحة والساعة فانه قرر نقلها الى مخازن الحكومة

الفصل الثالث

لم يكدرني في اقامتي بهذا البلد الا القيود والاصفاد وقلة الرياضة ولكن كل يوم كانت تنبعث فيّ روح الأمل بالفكاك بعد أن رأيت أن دعتي وحسن سيري كان لهما وقع حسن في نفس الملك وبلاطه والجيش وسائر الناس فقل تخوفهم مني حتى أن بعضهم كانوا يرقصون على كفي وأبحت للأطفال اللعب والاختفاء بين ثنايا شعر رأسي كأنهم في احدى الغابات الكثيفة كل هذا ارضاء لهؤلاء القوم كي يستفزهم الاطمئنان والولاء الى تقريراطلاقي وحل وثاقي ووطنت النفس على مخاطبة الملك في الأمر بألحاح متى عادني كعادته فحضر يوماً ومعه سائر الوزراء وأرباب المقامات السامية وأخبرني انه أعد احتفالاً شائقاً ترويحاً للنفس وأظهارا لبراعة قومه امامي فجاءوا بخيط ونصبوه علي ارتفاع قدمين

ونصف قدم من الأرض وأخذ الوزراء وكبار الموظفين يطفرون من فوق هذا الخيط ويلعبون العاباً بهلوانية شتى تحار لها الالباب ولا يقدرها قدرها من الأعجاب الا من آزره الحظ وشاهدها بنفسه وكان أعلى القوم طفراً ناظر المالية وهو كبير الوزراء لم يستطع أحد من زملائه ان يباريه في هذا المضمار وكانت هذه عادتهم في اختيار الموظفين للوظائف العليا وللوزارة فكلما خلت وظيفة تسابق الطالبون لها في الطفر والوثب ونال الوظيفه من فاق الأقران فى هذا الميدان

ولما رأيت منهم هذا الميل ألى الألعاب الرياضية البدنية عنّ لي أن أخترع لعبة جديدة فطلبت عصياً من الخشب طول الواحدة قدمان فأمر جماعة من الحطابين بأجابة الطلب وفي اليوم الثانى أبصرت ثمانى عجلات يجرها ثمانية من جياد الخيل قادمة نحوي وعليها العصي التي طلبتها فنصبتها في الأرض كالأوتاد بشكل مربع وشددت اليها منديلي على ارتفاع قدم ونصف قدم ثم طلبت ان يؤتى بأربعة وعشرين من نخبة فرسان الجيش ليتمرنوا على الكر والفر والضرب والطعن فى تلك البيداء التي خلقتها

لهم واخذت الفرسان في يدي مدججين بالسلاح وراكبين جيادهم ووضعتهم على المنديل فقامت مناورة هائلة تمثل حرباً حقيقية أبلى فيها الجيش بلاء حسنا وأظهر من اساليب البراعة والحنكة والدراية في الفنون العسكرية ما أدهش جميع الحاضرين الا أن حصانا ضرب المنديل بظلفه فانفجر وهوت ساقه وسقط الفارس طريحاً ولم ينجم عن ذلك ضرر يذكر والحمد لله سوى أن الحصان انخلع مفصل كتفه ولكني علمت بعد ذلك أنه برئ من هذه لكارثه

وبعد أيام قلائل ورد على الحكومة بلاغ مفواه أن بعض الأهالي وجدوا على الشاطئ قرب المكان الذي وجدوني فيه جرماً أسود ضخماً عالياً في ارتفاع القصر الملكي وأن قاعدته العليا سهل منبسط فسبح الأرجاء ويظن انه من متاع الرجل الجبل فلما سمعت هذا الخبر طرت فرحاً وسروراً بوجود قبعتي التي افتقدتها كثيراً ولم أعثر لها على أثر وطلبت من جلالة الملك أن يأمر بأحضارها وفي الصباح أبصرت عدداً من الخيل تجرها على الأرض مسافة نصف ميل تقريباً فخشيت أن يكون اصابها

العطب ولكن لحسن حظي وجدتها في حالة مرضية

فاستبشرت بهذا الفأل الحسن وأيقنت ان ساعة الخلاص آتية لاريب فيها فقدمت التماساً أطلب به الفكاك من قيودي المؤلمة ولما عرض على مجلس الوزراء وافق عليه الجميع الا وزير البحرية الذي أعلن عداءه لي لغير ماسبب . وبعد شدة اللجاج والحجاج تقرر بالأغلبية أطلاق سراحي ولكن ذلك العدو اللدود أبى ألا أن يكون الفكاك مقيداً بشروط جائرة عرضها على المجلس فوافق عليها وهذا نصها

من صاحب الجلالة والقوة والجبروت . امبراطور ليليبت بهجة العالم وروعه . صاحب البلاد المترامية الى أطراف الكرة ملك الملوك واطول البشر . الذي قدماه في وسط الأرض ورأسه تناطح الشمس . يرتعد كل الامراء لنظرة منه بيد انه يماثل الربيع لطفا والصيف جودة والخريف جوداً والشتاء شدة الى الرجل الجبل الذي رمته المقادير على بلادنا السمارية ليقوم بأداء الواجبات والفروض الآتية مادام مقيماً بين ظهرانينا

(١) ليس للرجل الجبل ان يبارح القطر الا بتسريح رسمي مبصوم بالخاتم الملكي

(٢) ليس له ان يحضر الى العاصمة الا بأمر منا وفي هذه الحالة يجب أعلان الأهالى قبل موعد الحضور بساعتين على الاقل حتى يتمكنوا من القفول الى منازلهم

(٣) ليس له أن يمشي الا في الشوارع الواسعة ولا ان يضطجع في مرج أو حقل

(٤) عليه أن يكون شديد الانتباه في سيره فلا يطأ على رعايانا أو خيلهم أو مركباتهم الا بأمر منا وألا يضعهم فى كفه الا اذا كانوا راضين مرتاحين

(٥) كلما كانت البلاد محتاجة الى ارسال رسالة مستعجلة عليه أن يحمل البريد في جيبه الى المكان المطلوب وأن يرده الى العاصمة بدون أن يصيب البريد أذى ولا يكلف بذلك أكثر من مرة فى كل شهر

(٦) عليه أن يكون لنا عونا على جزيرة بلفسكو عدوتنا وأن يدمر اسطولها الذي تعده الآن لمهاجمة بلادنا

(٧) عليه أن يعاون العمال فى حمل الاحجار الضخمة الثقيلة اللازمة لجميع المبانى الملكية

(٨) عليه أن يحصي مساحة بلادنا بخطواته في ظرف شهرين من هذا التاريخ

(٩) عليه أن يقسم يميناً مغلظة باتباع كل هذه الفروض بصدق وأخلاص وله مقابل ذلك طمع من الغذاء يكفي ١٧٢٤ من رعيتنا وقد أبحنا له التشرف بزيارتنا كلما أراد

صدر بقصر بلفا بوراك في اليوم الثاني عشر من القمر الاول بعد التسعين من حكمنا الميمون

وبعد أن قرئ عليّ هذا الامر أقسمت يمين الطاعة والأمانة ووقعت بأمضائى بكل سرور وانشراح ولو أن بعض الشروط كان شائناً جداً ولكن حضور الملك وقت التعاهد جعلني أقبل كل ماعرض عليّ وأخيراً فتحت الاقفال ورفعت الاصفاد فسجدت شكراً بين قدمي جلالة الملك الكريم الا أنه أمرني بالقيام والتمتع بهذه الحرية التي نلتها باستحقاق وجدارة ووعدني بمزيد الرعاية ما لبثت بهذا السير الحميد

ربما يعجب القارئ من أن هؤلاء القوم قدروا غذائي بما يكفي ١٧٢٤ نفساً وقد دهشت انا أيضاً لهـذا التقدير ولكنهم أخبروني أن كبار المهندسين قاسوا طولي وأنا راقد فوجدوا أني أطول من الأهالي بمقدار اثني عشر مثلا واستدلوا بواسطة عملية حسابية دقيقة أن جسمي يحتوي ١٧٢٤ جسماً من أجسامهم فأنعم بهذه المهارة الباهرة

الفصل الرابع

ما كدت أتمتع بهذه الحرية المبتغاة حتى التهبت شوقا الى مشاهدة ميلندو قصبة البلاد وطلبت التسريح المذكور فى صك الفكاك فلم يمانع جلالة الملك في ذلك مطلقاً الاأنه أوصاني بشدة الانتباه والاحتراس واتباع الشروط الخاصة بمعاملة الأهالى ثم بث النجّابين في الطرق والشوارع يحذرون الناس نتيجة الخروج أثناء سيري حتى لا يصيبهم أذى

وأخيرا أزفت الساعة التي كنت أرجوها وخرجت فألفيت جداراً مضروباً حول المدينة يبلغ قدمين ونصف قدم في الارتفاع وهو على شكل مربع طول ضلعه خمسمائة قدم فتخطيت السور بعد أن خلعت معطفي لئلا تهدم أهدابه ذلك الجدار الدقيق . وفي المدينة فجاج متسعان جداً بعرض خمس أقدام مشيت

فيهما بكل احتراس وانتباه حتى لا أدوس بعض السوقة الذين تخلفوا في الطريق رغم الأوامر الصارمة وكانت جميع النوافذ والاسطحة غاصة بالشهود فسرت حتى وصلت الى القصر الملكي وهو قائم وسط ميدان فسيح فى ميتاء الفجين وتأملت المدينة من هذا الموقف فاذا هي عامرة آهلة بالسكان وأسواقها مشحونة بنفيس البضائع ولذيذ المآكل وحركة البيع والشراء لا تنقطع فتمثلت لي في تلك اللحظة كأنها خلايا النحل ساعة وضعها العسل

أما القصر الملكي فقائم وسط حديقة غناء منسقة أحسن تنسيق ومزدانة بأزاهار زاهية الألوان ذكية الرائحة وأبنيته موزعة في ثلاث ساحات مساحة كل ساحة منها أربعون قدماً تقريباً وقد حبب إليّ جلالة الملك أن أشاهد فخامة بيته وحسن روائه ورونقه فلم أجد سبيلا الى الوصول الى الساحة الداخلية لأن مباني القصر تبلغ خمس أقدام في الارتفاع ولا أستطيع تخطيها لهذا السبب قصدت الى الغابات وقطعت كثيرا من أشجارها الضخمة وصنعت كرسيين بارتفاع ثلاث أقدام ثم عدت يوماً آخر واستعنت بهذين الكرسيين على الوصول الى الساحة

الداخلية واضطجعت على جنبي فشاهدت في السورة الثانية ما أذهلني وأدهشني من جميل الرياش وفاخر الآثاث ورأيت الملكة وأولادها حواليها جالسون في غاية البسط والانشراح فتبسمت لرؤيتي وأدلت يدها من النافذة لأقبلها

وبعد هذه الزيارة بأسبوع حضر رئيس ديوان الملك بدون حرس أو حاشية ولكنه كان في شدة الارتباك والاضطراب وطلب ان يخاطبني على انفراد في أمور مقلقة ألا أنها هامّة جداً فقلت حباً وكرامة وأخذته في يدي ووضعته على منضدتي وقعدت أسمع ما عنده من الأخبار فقال

لعلك لاحظت في جميع كبار الموظفين ان أقدامهم منخفضة العقب جدا والملك في زمرتهم ولا تظن أن كل الامة بهذا الوصف بل أن في البلاد حزباً آخر عالي العقب وربما زاد عنا عدا غير أننا غلبناهم على أمرهم وأخذنا مقاليد الأمور في أيدينا فترى العداوة مستحكمة بين الحزبين كل يريد تملك السلطة ولكن الملك منخفض العقب الى درجة متناهية فأخذ في مناوأة أرباب العقب العالي ومطاردتهم من كل المناصب العمومية

السامية وقد نال أربته بحسن السياسة والمكر والدهاء والقوة أحياناً ولا تزال العداوة مستعرة بين الحزبين فلا ترى ذا عقب عال يخالط صاحب العقب المنخفض أو يجالسه غير أننا لسوء الحظ لاحظنا أن أحدى قدمي الأمير ولي العهد لها عقب عال ونخشى أنه عند ما يتبوأ الملك في المستقبل يغير من سياسة البلاد أو يتراوح بين الفريقين فنقع في حرب داخلية هائلة تكون نتيجتها الضعف العام والفاقة الشديدة سيما وأن جزيرة بلفسكو عدوتنا واقفة لنا بالمرصاد تتحين الفرص للايقاع بنا لضغائن قديمة وعداوات وحروب لم يمحها كر الدهور ومر الأيام

وأهم أسباب هذه العداوة راجع الى خلاف يدني قديم لم تصلحه تلك المصائب والويلات القاسية وتحرير الخبر أن الملك الاسبق جد ملكنا الحالى كان وهو صبي يأكل بيضاً ويكسره دائماً من الطرف العريض كما هي العادة الدينية عندنا الا أنه مرة جرح أصبعه وهو يأكل فأصدر والده أمراً عالياً يقضي بكسر البيض من الطرف الرفيع فهاج الاهالى وتنازعوا واضطربت الاحوال في أقاصي البلاد لدخول هذه البدعة في الدين ووصموا

الملك وحاشيته بالزندقة والمروق ورفضوا العمل بهذا الامر المحدث فقامت حرب داخلية تصدعت لهولها السموات والارض وقتل فيها أكثر من خمسة عشر ألف نفس ولكن الفوز كان دائماً حليف حزب الطرف الرفيع أي حزب التقدم العصري وأما حزب التأخر (وهو حزب الطرف العريض) فهاجر كثير منهم من البلاد وأقاموا بجزيرة بلفسكو وطلبوا وساطة ملكها في فض الخلاف خصوصاً وأنه يدين بديننا فأرسل السفراء والبعثات الى ملكنا لعلها ترجعه عن غيه حتى لا يكون انقسام فى الدين أو يصبح آلة في يد الامراء يصرفونه كيف شاءت الاهواء

ومن العجيب أن النص الوارد فى السورة الرابعة بعد الخمسين من البلندكار (وهو انجيلهم) لم يعين الجهة صراحة فهو من قبيل المتشابه الذي يذهب فيه المفسرون كل مذهب وهاك ذلك النص (انما المؤمنون الذين اذا أكلوا بيضهم كسروه من الجهة الملائمة) ويخيل الىّ أن الامر لايحتاج الى خصام أو تنازع فأن الحكم فيه موكول الى طهارة ذمة المرء وسلامة فطرته فليعامل الله كل انسان بما يمليه عليه وجدانه وضميره وليترك المنازعات

الدينية فأنها شخصية محضة لاتأثير لها في سياسة الحكومة والبلاد هكذا انقسم سكان ليليت وتغالى المهاجرون منهم في خيانة الامة والوطن وشملوا الفتن والقلاقل في داخل البلاد . ولم يكتفوا بهذا بل جاهروا بالمروق المطلق وانحازوا الى صفوف عدوهم الألد الذي يريد ابتلاع بلادهم وامتصاص خيراتهم وتوسلوا اليه أن يتداخل في الامر بالقوة ليكسر تلك الانوف الشماء وذلك الاباء الشريف فأعد الاساطيل المهلكة أملا في تملك بلادنا وايقاعنا تحت ربقة الاستعباد لا حقق الله لهم أملا ولا أمنية سيما وأن شهماً مثلك في بلادنا يستطيع أن يدفع عنا غائلة الاعادي وينقذنا من شرهاتيك المخاطر

ولم يسعني في ذلك الموقف المحفوف بالمكاره الا أن اخبره بأني مستعد لحماية جلالة الملك و بلاده من شر الاعداء وكيدهم غير أني لاأرى ما يحملني على التداخل في الآراء السياسية والأحزاب وما ينجم عن ذلك من الأشكال والاضطراب

الفصل الخامس

بلاد بلفسكو جزيرة عظيمة فى الشمال الشرقي لجزيرة ليليت يفصلها بحر عرضه ثمانمائه ياردة تقريبا ولشدة العداء القائم بين الدولتين وقفت حركة التجارة الخارجية وانقطع السفر والسياحة واصبح لا يدري احد القطرين ما يقع فى القطر الآخر ولهذا السبب لم يعلم اهالى بلفسكو بوجودي عنداً عدائهم وألا لتربصوا قبل اعلان الحرب حتى يتبينوا ما يكون من امري

ولكي اقوم بالشرط المذكور فى صك الفكاك الخاص بمعاونة هذه البلاد على الاعداء اخذت منظاري وصوبته نحو الجزيرة فوجدت على شاطئها اسطولا عظيما مركبا من خمسين سفينة حربية مدرعة مع ما يتبعها من سفن النقل والمؤن والزخيرة تتهز هبوب الريح الموافقة حتى يرفعوا مراسيها ويقلعوا نحو بلادنا مهاجمين

ثم استدعيت مهرة الملاحين وعلمت منهم أن البحر لايزيد عن ثماني اقدام في اعمق جهاته فطلبت ان يصنع لي خمسون سلسلة وعدد كبير من قضبان الحديد كي اثنيها واجعلها صنانير

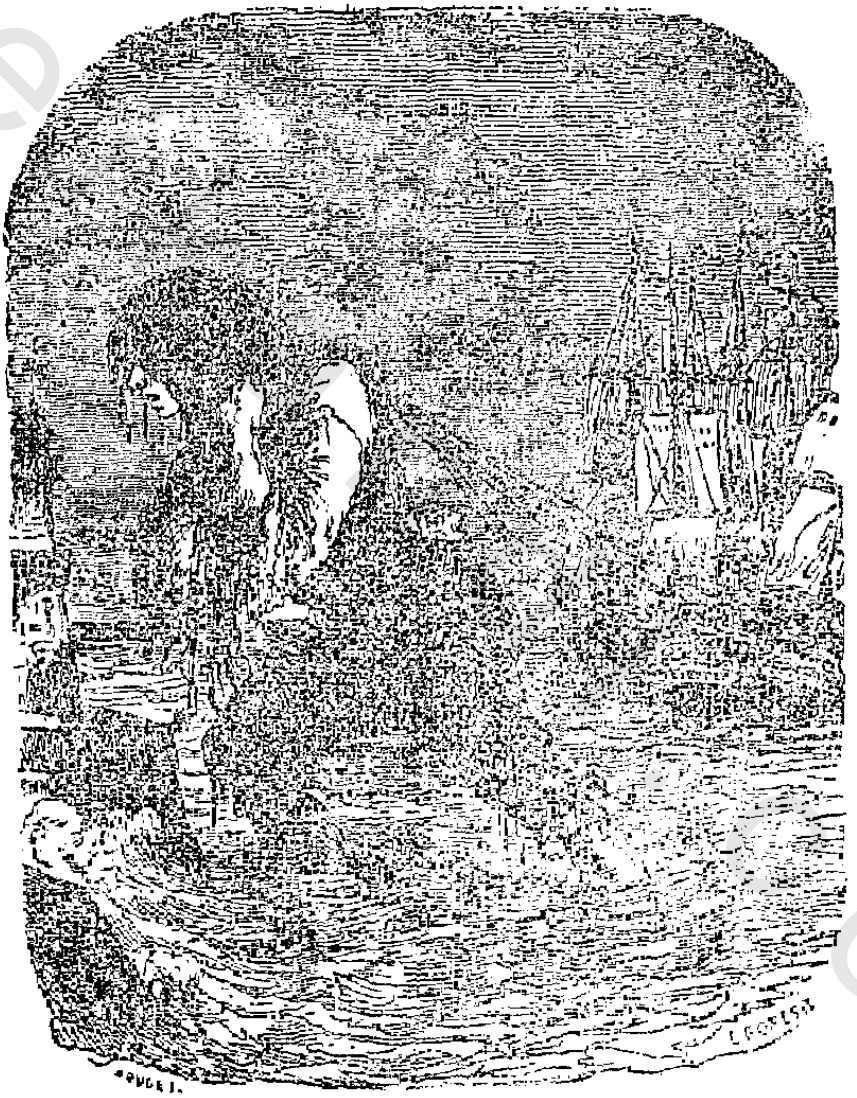

(جلفر وأسطول بلفسكو)

ولماجاء وني بما طلبت غصت في البحر وسبحت بعضه حتي بلغت الشاطئ الثاني وشبكت الصنانير في المدرعات بعد ان

ربطتها في السلاسل وقطعت المراسي وسط مطر من السهام والنبال وغدت والاسطول خلفي يمخر العباب سائرا في نصف دائرة كأنه عرض بحري عظيم

وعند عودتي الى البر وجدت الملك والوزراء وجميع أرباب المقامات الرفيعة في انتظاري على أحر من الجمر يترقبون النتيجة أما خيرا أو شرا ويحسبون الف حساب لدهاء اعدائهم واقتدارهم في البر والبحر فكانوا يتوجسون خيفة من انهم يفتكون بي وتحل النقمة بهم بعد موت حاميهم . ولكن نجم سعدهم وصل الى السماك عند مابرزت من الماء قابضا على السلاسل التي تشفي غلتهم فوثبوا فرحا وسرورًا وقلدني الملك في الحال اكبر وسام وانعم عليّ برتبة «ناردالك» وهي اسمي رتبة في تلك البلاد

ولكن الملك لم يكفه هذا الفوز المبين الذي لم ترق فيه قطرة دم ولم يتحرك من أجله رجل ولم ينفق في سبيله درهم بل طلب مني أن انتهز فرصة أخري وآتيه ببقية السفن حتى لايصبح للاعداء حول ولا طول فيستطيع حينئذ ان يتملك الجزيرة ويجعلها ولاية يحكمها أحد عماله أو المقربين اليه ثم يشفي صدره

بالانتقام من رعاياه الذين هاجروا عقب الشقاق الذي وقع في مذهب كسر البيض ويصير من ذلك الوقت حاكم الدنيا بأسرها

غير أن شهامتي أبت أن أؤاتيه على هذا البغي والجور وأن اكون العامل في استعباد امة حرة عاشت السنين الطوال تأبي الضيم وتنصر الضعيف على القوي ما دام الحق في جانبه حتي جعلت لها مهابة وكعبا عاليا في العدل والانصاف والصدق والاخلاص فراجعت الملك في الأمر وأقمت عليه الحجج الدامغة من ضروب السياسة وعبر التاريخ حتى انحاز أغلب الوزراء الى رأيي عند ما طرحت المسألة على المجلس ولكن الملوك لا يقف في سبيل اطماعهم حق أو انصاف فتراهم يستعملون كل الوسائط السافلة الدنيئة لبلوغ غاياتهم الجائرة وينقمون على من يمحص لهم النصح لغير مأرب شخصي أو منفعة ذاتية رغم مايرون فيهم من الاخلاص في العمل والقيام بالوعود والعهود وهذا الملك العريق في الملك وصفاته لم يخالف تلك السنة الشنعاء بل أضمر لي الشر والوقيعة وشاركه في ذلك عدد من الوزراء نابذوني العداوة لغير ذنب اقترفته سوى خدماتي الصادقة

وبعد أن انقضت هذه الحوادث بثلاثة اسابيع حضر ستة سفراء من حكومة بلفسكو ليقرروا عقد الصلح وشروطه فساعدتهم بكل ما استطعت من قوة الحجة وحسن التدبير حتى وفقوا الى عقد معاهدة غير شائنة ولا جائرة فحضروا الى بيتي يوما في زيارة رسمية ليشكروا حسن صنيعي نحوهم وأكدوا لي ان ملكهم يمتلئ بالفرح والسرور اذا زرت بلاده لتعرف احوالها حيث أكون موضع حفاوته واكرامه فوعدتهم اني سأنتهز أول فرصة تسنح للتشرف بالمثول بين يدي مليكهم الذائع الصيت وأملت أن يمكنني الحظ من القيام بخدمة تقر لها عينه أن شاء الله . ولما قابلت ملكنا التمست الأذن بالتوجه الى جزيرة بلفسكو لاني ميال الى مشاهدة البلاد الغريبة واستطلاع معالم المدنية والحضارة فلم يرد من اجابة ملتمسي ولكنه رمقني بعين ملؤها الأغضاء والجفاء ولم اعرف سببا لهذه المعاملة ألا أخيرا حيث تبين لي أن اثنين من الوزراء وشوا بي من جهة حديثي مع سفراء بلفسكو ومساعدتي لهم فحنق عليّ الملك وصمم على تعذيبي ان لم يقدر على الفتك بي فشعرت لأول مرة بمبلغ المكايد والوشايات التي

تنجم عن الاحتكاك ببلاط الملوك

وقد دلت الوقائع والحوادث على أن جليس الملوك والامراء محفوف دائما بالمخاوف والمكاره لا يهنأ له بال ولا تطمئن له نفس مادام في عداد المقربين وأني اتذكر في هذا الصدد حادثة كنت أظن أن أنال بها ارفع مكانة من القبول والتقريب ولكنها لسوء الحظ انقلبت ضد مصلحتي وكانت في الحقيقة السبب الذي عجل بخروجي من تلك البلاد ففي ليلة من ليالي الصيف قد جعلها القمر نهارا بحسن ضيائه كنت جالسا في بيتي واذ بضجة وجلبة وصياح وأخذ ورد فخرجت لأقف على جلية الأمر فأخبروني أن النار اشتعلت في قصر الملكة وأنها لا بد تلتهمه ان لم أبادر بأخمادها في الحال فهرولت خلف القوم مسرعا لأدرك القصر قبل ان يستفحل الخطب وكان العسكر ورجال المطافئ يكافحون النار مكافحة الابطال ويصبون عليها ماء متدفقا من أوعية تزيد قليلا عن حجم الدستبان بعد ان نصبوا السلالم والمراقي ليتمكنوا من تعيين مركز تلك الجذوة الخبيثة فجريت الى بئر قرب بيتي قد وضعت بجوارها طستا اغتسل فيه وكان لحسن الحظ مملوء

بالغسالة فحملته على كتفي وأدركت القصر والنار في أشد استعارها وقذفت من الماء عليها ما أخمدها في أقل من دقيقتين غير ان الاضطراب والقلق فى ذلك الموقف الحرج اذهلانى عن مادة فى القانون الجنائى تقضي بالأعدام على كل من صب قذرا على القصر الملكي فايقنت انى لابد من الهالكين الاّ أن الملك هدأ روعي ووعدنى بأن يحمل حكومته على اصدار عفو عما اقترفت من الاثم لأنى فى الحقيقة قد قمت بخدمة عظمى ولكن الملكة أبت أن تسكن هذا القصر بعد أن تنجس بالأقذار وحملت فى صدرها نحوي من الضغائن والأحقاد ما تندك له الجبال و ينذر بسوء المآل

الفصل السادس

الآن وقد قرب انجلائي عن هذه البلاد لا أبخل على القراء بوصف أهلها ودرجة حضارتهم ومدنيتهم فمتوسط قامة هؤلاء الأقوام لا يزيد عن نصف قدم وبلادهم آهلة بجميع أنواع الحيوانات المستأنسة الداجنة والنباتات المألوفة الا أنها جميعاً بالحجم المناسب للأهالي فترى البقر والثيران والخيل لا تزيد عن خمسة قراريط في الارتفاع والغنم عن قيراط ونصف قيراط وقس على ذلك سائر الحيوانات كالأوز والدجاج والعصافير فان كثيراً منها لا أستطيع أن أبصرها لدقتها وخفة سيرها على الارض ولكن أهل البلد حديدو البصر لدرجة متناهية فيرون بأعينهم مالا أراه أنا الا بالمنظار المعظم (ميكروسكوب) وكثيرا ما كان يستولى عليّ الدهش والاستغراب كلما لاحظت

طاهياً ينتف ريش قبرّة في حجم ذبابنا أو بنتاً تسلك ابرة في خيط دقيق لا أستطيع أن أبصرها البتة وأترك القارئ يصور في ذهنه أحجام النباتات المتنوعة بهذه النسبة وأرجو له التوفيق في هذا الخيال

ومع دقة أجسامهم وأيديهم تراهم في غاية المهارة والسرعة في الكتابة الا أن الاسطر ليست من اليمين الى اليسار كالشرقيين ولا من اليسار الى اليمين كالغربيين ولا من أعلى الى أسفل كالصينيين ولا من أسفل الى أعلى كأهل بعض الجزائر البعيدة ولكنها مائلة على امتداد قطر الورقة كما يفعل عادة كتبة المصالح والدواوين

ورأيهم أن الارض مسطحة منبسطة وليست كرية ويعتقدون أنها تنقلب على وجهها الأسفل بعد أحد عشر ألف قمر وهو ميعاد قيام الساعة ولهذا الاعتقاد تراهم يدفنون موتاهم قائمين على رؤوسهم وأرجلهم الى السماء حتى أذا أزفت الآزفة وانقلبت الارض كانوا واقفين على أقدامهم مستعدين لملاقاة الله الواحد القهار غير أني علمت بعد كثرة السؤال والاستفهام

أن العقلاء والمفكرين لا يرتضون هذا التخريف والضلال ولكنهم لا يجرءون على المجاهرة بهذه الآراء الحقة ومصادمة العامة فيما يعتقدون لئلا تتزعزع ثقة الغوغاء فيهم فيخسرون مناصبهم السامية التي لم ينالوها الا بهذا التمويه والتضليل

ولهذه البلاد قوانين من الغرابة بمكان فمنها أن كل من قام في وجه الحكومة بنقد أو تقريع على خطأ ارتكبته يعاقب بالاعدام جزاء تهجمه على هذا المقام العلي الشأن وأما اذا ظهرت براءته من التهمة وقع الجزاء نفسه على المبلّغ وصودرت جميع أمواله وأملاكه وأعطيت للمتهم نظير العطل والأضرار وتعويضاً له عما قاساه من صنوف العذاب والأرهاب ثم ينبث النجابون في طول البلاد وعرضها يعلنون براءته من كل شين وعار

ويعتبر الغش والتدليس من الجنايات الكبرى التي يجازى مرتكبها بالاعدام فهي أشد وقعاً من السرقة في عرف القانون لان الناس طرا يستطيعون أن يقوا أنفسهم شر اللصوص متى استعملوا وسائط التحفظ والانتباه أما الخداع والغش والتدليس فلا يقوى سلاح الأمانة والصدق والاخلاص على مناوأتها

ومكافحتها مع كثرة الاحتكاك والتعامل الذي يقضى به نهج العمران وأذكر أنني كنت مرة في حضرة جلالة الملك وقد استشفع بي خادم جبي لسيده مالاً ثم أخذه وركن الى الفرار فهزتنى أريحية الشفقة والمرحمة أن أتوسط لهذا المسكين لان الذنب في نظري الأوربي غير جسيم سيما وهو من قبيل خيانة المؤتمن فغضب الملك وقال انى بهذا العذر قد جعلت الجريمة في أقصى درجات الفظاعة فخجلت واعتذرت بأن المشارب تختلف باختلاف الأمم والعادات

وقد تمثل هذا الاختلاف بأجلى بيان عند ما علمت أن القانون لم يوضع فقط لعقاب المجرمين ولكنه يثيب المحسنين كذلك على قدر احسانهم وكل من أقام الدليل على حسن القيام بواجباته الاجتماعية مدة لا تقل عن ثلاثة وسبعين قرناً خول له كثير من الامتيازات ومنح وساما ولقبا يشرفه أمام أنداده وأهل بلاده ولذلك تراهم يمثلون العدل بانسان له ست عيون رمزاً الى الاطلاع على كل ما يحصل من الصلاح والفساد ويحمل فى يمينه كيساً مفتوحا مملوء بالذهب الوهاج وفى يساره سيفاً مغمداً

أشارة الى أن العدل أميل الى الثواب منه الى العقاب

ويبني اختيار الموظفين على متانة الاخلاق والصدق والعدل والاعتدال فلا يغتر أحد بزخرف النباهة والذكاء لان أمور الحكومة ليست من المسائل العويصة التي تحتاج الى عقول الفطاحل وأفكار الحكماء وقليل ماهم بل الى الصدق والاخلاص والدأب على العمل وكثيراً ما نشاهد الفساد استولى على بلاد يدير دولابها أكبر العقلاء وأفطن الاذكياء فيدبرون الامور بما يوافق صوالحهم الذاتية ويستعملون كل فطنتهم وملكاتهم في أخفاء عيوبهم وخياناتهم المنكرة فتقع البلاد في مهاوي الدمار التي لا يستطيع أن ينتشلها منها الا ذوو الفطرة السليمة والصدق والاخلاص أما عادة المسابقة في الطفر والوثب فبدعة مستنكرة أدخلها الملك الأسبق لانه كان مولعا بالرياضة البدنية واستمرت مكانتها وسما قدرها في هذا العصر

ولا يعتقدون أن هناك ما يدعو الى التواصل بين الآباء والابناء لان الولد يولد في الدنيا فلا يرى فيها الا المتاعب والآلام وهذا كله نتيجة جناية الآباء في ساعة لهو وطرب لم يدر بخلدهم

في خلالها أنهم انما ينفعون الدنيا ويعمرونها بهذا التناسل الذي لاحد له فعمدوا الى انتزاع الولد من أحضان أمه وعمره عشرون قمرا وأسسوا ملاجئ عمومية لتربية الاطفال ورعايتهم وتهذيبهم كي يضحوا رجالا ونساء يقومون بواجباتهم المقدسة نحو الأمة والوطن

ولا يختلط البنات والغلمان في ملجأ واحد بل جعلوا لكل فريق ملاجئ خاصة حسب تنوع طبقاتهم في الهيئة الاجتماعية فأولاد الامراء والسراة لهم ملاجئ يتربون فيها على مبادئ الشرف والعدل والشجاعة والتواضع والرأفة والدين وحب الوطن وتراهم دائما مشتغلين بدروسهم عدا أوقات الطعام والنوم ولهم ساعتان يصرفونهما فى الرياضة الجسدية وعليهم رقباء من كبار المربين والمؤدبين يرافقونهم في غدوهم ورواحهم ولا يبيحون لهم مخالطة الخدم أو السوقة كيلا ينقلوا عنهم البذاءة والاخلاق الشائنة ولا يسمح لآبائهم بزيارتهم الا مرتين في كل سنة لا يتهامسون فيهما ولا يتحببون الى الاولاد بعبارات التعزيز والمداعبة ولا يقدمون لهم ألاعيب أو حلوى أو ما شاكلها ومتى

بلغ الأولاد الخامسة عشرة يخرجون من الملجأ لاتباع الخطة التي يختارونها

اما البنات فملاجئهن تشبه ملاجئ الغلمان غير أن رياضتهن الجسدية أخف وأبسط مما للغلمان وكذلك مقدار ما يتعلمن من العلوم لأنهم يرون أن المرأة تحتاج الى دراية وعلم تدبير منزلها فلا تستطيع ان تتلقن كل علوم الغلمان ألا أنهم لا يتركونها بغير دراسة المعارف المبدئية كي تكون أنيسا لزوجها متى فارقتها نضرة الشباب تجتذبه بحلو حديثها مخافة ان يمجها وقد زال رواؤها

وبنات العامة يتعلمن الصنائع والاشغال المنزلية ويستخدمن في البيوت العظيمة ومحال التجارة الواسعة حتى لا يمضهن الفقر بأنيابه ان لم يجدن زوجا ولا يتعلم اولاد الفلاحين شيئاً من العلم ولا يقبلون فى الملاجئ أو المدارس لأن عليهم حرث الأرض وزرعها فلا يفيدهم التعليم أقل فائدة ألا أن لهم مستشفيات وملاجىء يأوون اليها وقت المرض أو العاهة كيلا يريقوا ماء وجوههم في التسول والسؤال

وهنا استميح القارىء عذرا اذا ذكرت له طرفا من أسلوب معيشتي فى تلك البلاد طول اقامتي بها فى ذلك الهيكل النجس فقد كان لدى ترخيص عام بحرية التصرف فى الأحراش والغابات فعمدت ألى أكبر الشجر وقطعته لأصنع منه منضدة وكرسيا أخذتهما الى منزلي وخصص لي مائة خياطة ليخطن الاقمصة والسراويل والملاآت اللازمة للفراش وكن يقسن طول الشعار وانا راقد على الارض فتمشي الواحدة على صدري ومعها طرف خيط طويل ثم تصعد بعدها اخرى قابضة على الطرف الآخر وتشدان الخيط وتأتي ثالثة فتقيس طول الخيط بمقياس طوله قيراط واحد وبهذه الطريقة تمكن من صنع الشعارات اللازمة بدقة عجيبة

أما الملابس الخارجية فاعدوا لها ثلاثمائة خياط من أمهر الخياطين وكذلك كان في خدمتي ثلاثمائة طباخ لطبخ غذائى بنوا لهم منازل حول داري وكانوا يقدمون لي الطعام في صحافهم التي لا تسع من اللحم الا لقمة واحدة كنت التهمها وآكل عظامها معها فدهش الخدام لهذا الفعل ونمى الخبر الى الملك

فحضر مع جلالة الملكة والامراء والأميرات ليشاهدوا بعينهم مقدار صدق الرواية فوضعتهم جميعاً وهم على كراسيهم فوق المائدة وكان برفقتهم وزير المالية يراقب المقادير التي ابتلعها مما تخرج الارض من النعم والنبات فنصح للملك بكل الحاح ان يطردني من البلاد قبل ان يحل بها العسر المالي الذي أصبح يتهددها في القريب العاجل من جراء النفقات الباهظة التي يتحملونها خصوصاً وأن سندات الدين العمومي نزلت اسعارها تسعة في المائة ويظهر أن جلالة الملك مال الى رأيه فابتدأ من هذا الحين يغض الطرف عني ويعاملني بالجفاء فعزمت على الجلاء عن هذه البلاد لعلي أجد في غيرها صدرا رحيباً

الفصل السابع

قبل أن أغادر هـذه البلاد بأيام حصلت حادثة غريبة كانت السبب في تعجيل ارتحالي بدون امهال حتى لا ينال مني الأعداء مأربًا ولا يخفى أني كنت أشعر من مدة بشباك منسوجة من الكيد والوقيعة تنصب لى حتى تهوى بي في مهاوي الدمار وقد أكد لي هذا الظن صديق حميم لي في البلاط يحمل صدرا ملؤه العطف وعرفان الجميل اذ حضر لي متنكرا في ليلة اشتد ظلامها فكانت سوداء وصرف خدامه جميعاً وصار يتلفت يمنه ويسرة خوف افتضاح أمره فقبضت على كرسيه ووضعته على منضدتي كالمعتاد وأمرت خدامي أن يصرفوا عني كل زائر مهما كانت درجته أو انخفاض عقبه ثم جلست الى جانب المنضدة لاسمع ما ولدته الليالي في هذه البلاد المختزلة فأخبرني ضيفي بغير مقدمة ان القوم ائتمروا بي وعقدوا جملة جلسات سرية نفث فيها كل اعدائي فقطعوا حبل الولاء الذي استوثقنا به هـذه المدة الطويلة وقرروا الحكم عليّ بالاعدام جزاء جنايات عدة

اتهموني بارتكابها وأنه خاطر بنفسه في هذا الموقف الحرج لما بيننا من الصداقة والاخلاص وجاءني بنسخة من الحكم هذا نصها :

حيثيات الحكم

على الرجل الجبل

(١) من حيث أن القانون المسنون في عصر جلالة الملك دفربلون يقضي بأن من يلقي شيئاً من القذر على القصر الملكي يعتبر مرتكباً جريمة الخيانة ضد الوطن ومن حيث ان الرجل الجبل اقترف جريمة القاء الماء القذر على القصر المذكور بحجة اخماد النار التي كادت تلتهمه وهو على علم تام بنص القانون فيعتبر مرتكباً للجريمة فعلا

(٢) ومن حيث أن الرجل الجبل المذكور رفض أن يأتي ببقية سفن اسطول بلفسكو حتى يسهل تحويل تلك الدولة الى ولاية تابعة لدولتنا الضخمة وذلك بعد أن أحضر مدرعاتها واحتج بأن ضميره يأبى استعباد أمة اخرى مستقلة وهذه تعد خيانة اخرى ضد الوطن

(٣) ومن حيث انه عاون سفراء بلفسكو عند حضورهم لطلب الصلح بعد العداوة والحرب التي كانت بيننا فقد سجل على نفسه الخيانة ضد الوطن ايضاً

(٤) ومن حيث أنه عزم على مغادرة البلاد وزيارة عدوتنا ليساعدها ويعاونها علينا فيعتبر هذا العمل خيانة ضد الوطن يستحق عليها الاعدام

ثم قال ان الجلسات التي عقدت للمفاوضة في كيفية اعدامي كانت طويلة وحادة جداً ولكن جلالة الملك اظهر ما جبل عليه من المروءة والمرحمة ما يسجله له التاريخ في صفحاته البيضاء وكان أشد الناس غلظة وقسوة وزيري المالية والبحرية فانهما اقترحا أن يحرق الهيكل وانا فيه بعد ان تحيط به قوة مؤلفة من عشرين الف مقاتل يطلقون عليّ نبالا سمية وأن يوعز الى الخدم أن يضعوا نباتاً سماً بين ثنايا شعاري يجعلني أقطع لحمي تقطيعاً أما صديقي رئيس ديوان الملك فقد قام بكل ما توجبه عليه الصداقة في الدفاع عن حياتي بكل ما استطاع من القوة والحجج والتذكير بخدماتي الجليلة وعرض بدل

الاعدام فقء عيني حتى يكون العدل قد قام بالقسطاس المستقيم ويمجد القاضي والدانى مرحمة جلالة الملك ومروءته الا ان وزير البحرية سخر بهذا الرأي وسفهه ووصفه بالنزوع الى الخيانة وعدم الوطنية مدعياً أن الخدم العظيمة التي قمت بها لخير هذه البلاد هي في الحقيقة أشد البواعث على قتلي لان الصديق القادر على اغتصاب اسطول العدو يستطيع ان يرده اليه متى انقلبت صداقته لسبب من الاسباب وحينئذ لا يرى مناصاً من التشبث بطلب اعدامي كما أشار ثم قام وزير المالية وعضده وشد أزره وأنحى باللائمة على مقترح البخص بدعوى ان الدجاج تفقأ عيناه لتزيد شهيته للطعام فيسمن بسرعة وكذلك تكون نتيجة هذه العقوبة ان شهيتي تزداد فأستنزف خيرات البلاد وأوقعها في شر الويلات ولكن ذلك لم يقعد صديقي رئيس الديوان عن الدفاع عني فقام وعرض عقوبة اخرى يتقي معها كل جدال اذ نصح بتخفيض مقدار غذائي شيئاً فشيئاً حتى يهزلني الجوع تدريجاً واموت نحيل الجسم فلا يكون لي من النتن ما يضر بالصحة العمومية في البلاد ثم يقطع لحمي بعد

الموت ويدفن خارج الحدود في البراري والقفار ويبقى الهيكل العظمي عبرة للابناء والاحفاد

فصادف هذا الرأي الموافقة العامة وحكم المجلس بتنفيذه بغير أن يعلموني حتى لا أتحوط أو أحتال على الخلاص الاّ انهم أبقوا الحكم بالبخض ايضاً فأعاقب عقوبتين على جريمة واحدة

ثم قال ان رئيس ديوان الملك سيحضر اليّ في موكب رسمي ويقرأ ورقة الاتهام ولا يعلن حينئذ الا الحكم بالبخص فقط ويعتقد الملك أني أرتضي هذا الحكم وأحسبه في أقصى درجات التخفيف وسيكون مع ذلك الوزير عشرون من أمهر الجراحين لمباشرة عملية فقء العينين بتسديد نبال حادة على حدقة عينيّ وانا راقد على الارض ومستسلم لهم وأتم حديثه بأنه لا يبدي رأياً في سبيل التخلص من هـذه الدواهي لاني اكثر منه حكمة وقوة ثم انصرف عني كما أتى تحت جنح الظلام بحيث لم يشعر بمقدمه احد وبقيت انا وحدي أتردد بين الشك واليقين فيتخبطني اليأس بعد الامل

وقد اعتاد هذا الملك أن يتمشدق بالشفقة والمرحمة كلما اصدر حكماً تندك الجبال لجوره وعسفه وان يرسل النشر تباعاً في هذا المعنى فترتعد فرائص القوم وتقشعر ابدانهم ويستغيثون بالله من شر هذا الفتاك العاتية ومتى رأوا اغراقاً فى ذكر الشفقة والمرحمة الملكية تيقنوا ان الحكم قد بلغ نهاية التوحش ومنتهى الفظاعة

وكانت تطرأ عليّ احياناً بوادر التصديق بهذه الاكاذيب والتلفيقات الملكية وأمني نفسي بالبراءة متى وقفت امام القضاء العادل ولكن تعاودني الحكمة فتثنيني عن المجازفة بتعريض نفسي للهلاك من أيدي ظلمة قساة خسرة وطوراً تثور في رأسي سورة الغضب مع قوة الشباب فتدفعني الى الفتك بهؤلاء القوم وتدمير بلادهم رجماً بالحجارة غير اني لم أشأ أن أدنس شرفي بأدران الجحود والكفران بعد ما نلت من جميل الرعاية والاحسان وأخيرا عقدت العزم على الجلاء وأرسلت بلاغاً الى رئيس الديوان أعلنه بأني هاجرت من البلاد قصد زيارة جزيرة بمفسكو بناء على التسريح الشفهي

الذي حصلت عليه من جلالة الملك وذهبت الى الشاطىء حاملا غطائى ثم خلعت ملابسي ووضعتها مع الغطاء في احدى المدرعات وسحبتها خلفي حتى بلغت ساحل الجزيرة فاكتريت اثنين من الملاحين ووضعتهما على كفي ليوصلانى الى العاصمة

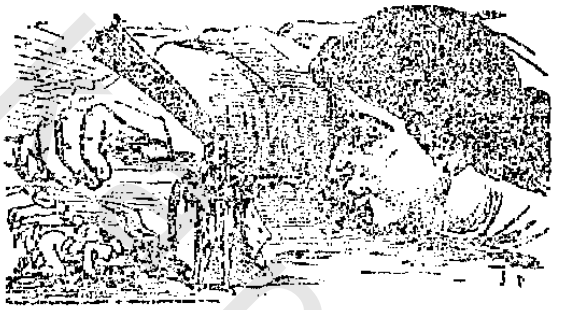

(أمبراطور بلفسكو)

ولما أشرفنا عليها ارسلتهما بخطاب الى احد الوزراء أنبئه بقدومي وبأنى مستعد لاتباع ما يأمر به جلالة الملك وبعد ساعة من الزمان جاء الرسول يحمل كتاباً يبلغني تحية جلالة الملك وترحيبه وقيام ركابه العالي لملاقاتى فى الطريق فأشفقت أن اكبده مشقة السير كل المسافة وسرت صوب المدينة حتى تلاقينا على بعد مائة متر منها والحرس يحفه من كل جانب وفي ركابه الامراء والاميرات وكبار الموظفين والسراة والاعيان

فرقدت أقبل يده وأبلغه تحية ملك ليليت الذي لم يضن عليّ بالاذن حتى استطعت ان أوفي بما وعدت وآثرت ان اكتم امر الحكم عليّ في موضوع الخيانات التي اتهمت بها ارتكاناً على جهله بها كيلا يصيبني منه جفاء او احتقار

الفصل الثامن

خرجت يوماً للنزهة على شاطىء البحر فساقني القدر جهة الشمال الغربى وانا غارق في لجج الهواجس والهموم أفكر فيما قاسيت من صنوف المكايد وضروب الوشايات التي أضاعت شرفي وكادت تودي بحياتي واذا بالبحر كأنه انفلق وتجلى على ظهره شبح قارب مقلوب فخشيت أن يكون الخيال قد لعب ببصري وجعله يرى ما كان يجيش في خاطري وتصبو اليه نفسي مع أنه لا وجود له لأن شدة اليأس والقنوط حملتني على الجزم بأن تلك الأمواج القاسية التي كانت السبب فى تعاستي وشقائي لا تحمل اليّ سفينة النجاة غير أن الأمل كثيرا ما تسلط على النفوس اليائسة فانتشلها من مهاوي القنوط وجاش في صدري تلك الساعة ذكرى بلادي وزوجتي وأولادي فانتزعت ثيابي وخضت في الماء كأني أسابق الريح وكلما ابتعدت

عن الشاطئ ازداد تجسم الشبح وافترابه الى الحقيقة فيدفعني توقع الفرج الى الجري نحو هـذه اللقية التى لا تقوّم وأخيرا زاد

(جلفر يدفع القارب)

البحر عن قامتي فاطرحت على ظهر الامواج اسبح بما تجدد فيّ من قوة ونشاط حتى وصلت الى القارب الميمون ودرت حوله

أختبر متانته من جميع جهاته فالفيته سليماً من العطب فدفعته أمامي وانا سابح يساعدني تيار المد بتوفيق من الله ورحمة حتى وصلت الى بدء المخاضة فوقفت على قدميّ أجدد القوة والنشاط ثم واصلت السير والقارب خلفي حتى احتك بقاع البحر فتربصت انتظر قفول المياه بالجزر فتبقى سفينتي بالعراء وحينئذ يمكنني أن أستعين بآلاف الملاحين والعمال في جذبها الى الساحل

ولما أيقنت ان السفينة في مأمن من الأخطار والمخاوف أسرعت الى مقابلة جلالة الملك لاستأذنه في العودة الى بلادي ما دامت المقادير قد ساقت اليّ هذه السفينة العظيمة فأظهر أسفه الشديد لفراقي وأخبرني أنه لا يقيد حريتي بالألحاح عليّ بالبقاء متى أزفت الساعة فشكرته على حسن صنيعه وطلبت المئات والألوف من العمال ليساعدوني في تجهيز السفينة وأعدادها للسفر و بلغني أخيرا أن ملك ليليبت انتظر عودتي أياماً ليشفي صدره بالانتقام مني ولما طال مقامي بالجزيرة أرسل سفيرا يعلم الملك بالجرائم التي ارتكبتها ويطلبني منه لأنال الجزاء العادل من يدى شفيق رحيم

ولكني لم أعبأ بهذا الأمر بل جهزت جهازي بمئات من النعم وما يكفيني شهراً كاملاً من الخبز والنبيذ وأخذت ستة من الثيران على قيد الحياة لأربى هذا النوع في بلادي اذا وافقه المرعى والمناخ ثم حضر جلالة الملك والامراء الى الساحل لتوديعي بما جبلوا عليه من رقة الشمائل ولطف الشعور فقبلت يده وعدت الى البحر بعد أن نصبت القلوع والسكان وخرجت السفينة في يوم صحوٍ وصفاء باسم الله مجراها ومرساها والأهالي واقفون على الشاطئ يزودونني بالدعوات الصالحات حتى حال بيننا الأفق وتوارينا عن العيان وكان خروجي من مرفأ المفسكو والساعة ست من صباح الرابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٧٠١ ووجهتي الشمال الغربي ظناً مني أني أجد جزيرة قريبة اقضي بها الليل عند ما يجن وقد صدق حدسي ووجدت الجزيرة بعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة تقريباً فالقيت المراسي في بقعة منزوية ونزلت الى البر دون أن أرى أحداً فتناولت عشائي ونمت الى قرب الصباح وما طلعت الشمس حتى برزت بالقارب في عرض البحر متجهاً نحو الشمال الغربي وسرحت الطرف في

الفضاء ارصد كل نقطة فيه لعلي أجد أثرا لسفينة تحملني الى الأهل والاوطان وبعد آلام وآمال وشك ويقين أبصرت قلعاً على بعد فرفعت أشارات الاستنجاد فلم تحفل بى السفينة بل استمرت فى مجراها الا أني وجدت أن البون بيننا يقل رويداً رويداً وأخيراً سمعت طلقاً نارياً وقفت لدويه دقات قلبي وأيقنت ان اليأس لما بلغ نهايته اعقبه الفرج العاجل فشددت القلوع وأعملت المجاذيف حرصا على الثواني من الضياع وشوقاً الى رؤية بني جنسي من البشر حتى أدركت السفينة وكانت انجليزية لحسن حظي فاستقبلني ربانها بكل عطف وترحيب وسار بي نحو حجرته بعد أن أخذت معي ما بقى من المؤن والغذاء ولم أنس الحيوانات الحية التي احتفظت بها كل الاحتفاظ وكانت لا تزال على قيد الحياة فسألني عن قصتي وما جرى لي من الأهوال ولما قصصت عليه الخبر أظهر الشك أولاً ثم التكذيب المطلق لهذه الغرائب والعجائب المدهشة حتى أتيته بالبرهان الحي فى جسم ما أحضرت من الثيران فاقتنع واعتذر عما فرط منه وعاملني أرق معاملة طول أيام السفر الى أن وصلنا

بلادنا في اليوم الثالث عشر من شهر ابريل سنة ١٧٠٢ فأسرعت الى بيتي ومعي حيواناتي وقضيت أياماً وأسابيع في غاية البسط والانشراح أجمع المال من فود القادمين لمشاهدة تلك الأعاجيب وأخيراً بعتها فى لندره بمبلغ ستمائة جنيه ولكن ولعي بالسياحة اشتد بعد شهرين من عودتي فجعلت لزوجتي وأولادي الكفاية من النفقة والمال وودعتهم يزرفون الدموع الغزار من أجل النوى والفراق

الجزء الثاني

سياحة الى بريد نجناج

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الاول

حدا بي الشغف والولع بالأسفار الى معاندة الأقدار واقتحام الأخطار فيما وراء البحار فغادرت الأهل والأوطان بعد شهرين اثنين من الزمان وركبت سفينة متينة البناء فسيحة الارجاء تحمل من البضائع والمتاجر ما يبهر الأبصار الى الجهات الجنوبية الشرقية وكان الربان ملاحاً متدرباً على الأسفار في تلك الأقطار فاختار الوقت المناسب ورفعنا المراسي وبسطنا القلوع وخرجت السفينة من المرفأ في اليوم العشرين من شهر يونيه سنة ١٧٠٢ كأنها طائر أبيض نشر جناحيه ليستقبل بهما نسيماً رق واعتدل وملأ القلوع وغنى فيها بنغمات الوداع الشجية المؤثرة واستمرت هذه الريح ترافقنا في رحلتنا بغير توان أو أمهال حتى وصلنا الى رأس الرجاء الصالح حيث ألقينا المراسي نطلب المياه العذبة من أنهاره الجارية وهناك اكتشفنا ثقباً في

السفينة اضطرنا ان نفرغ حملها حتى يسهل أصلاحها ولكن أصاب الربان داء الرعدة والقشعريرة وانهكت قواه فلبثنا في مستعمرة الرأس حتى أبل مما ألم به من المرض والهزال وأقلعنا في بدء أبريل سنة ١٧٠٣ مخترقين قناة مدغسكر حيث الرياح تهب الى الجنوب والشرق ستة شهور عرفا من أول ديسمبر الى آخر مايو

وما برزنا من القناة حتى اشتدت الريح تدفعنا صوب الشرق بعنف غير معهود في ذلك الاوان ولبثت على هذا المنوال عشرين يوماً متتابعة قذفتنا في غضونها الى شرق جزائر مولكا ثم انقطعت الرياح على غير انتظار فغشي الربان سوء المغبة وأمر بلف القلوع وتخفيفها ما أمكن لأنه يتوقع أعصارا شديداً في بضع ساعات ولقد صدق حدسه وقامت الريح تقصف كالرعد وتدفعنا نحو الشرق أياماً وليالي قاسينا فيها الأهوال الشداد حتى لم يعرف أكثر الملاحين خبرة وحنكة البقعة التي وصلنا اليها أو بعدنا عن العراء كي نؤمه ونملأ صهاريجنا من الماء فقد نفد ما كان لدينا وتدلت ألسنتنا وورمت

من شدة الظمأ وفي ١٧ يونيه سنة ١٧٠٣ تجلت أمام أعيننا أرض واسعة شاسعه يخترقها جدول صغير يتلألأ في ضوء الشمس كأنه سلك ضيع من الفضة فاشتدت العزائم وقوى الأمل والرجاء وأعددنا القارب ونزلت فيه مع عدد من الملاحين ابتغاء ورود الماء

(المارد يقتفي القارب)

ولما بلغنا البر تركتهم يستقون وتوغلت في الأرض لعلي أجدا أثر لأنسان أو حيوان أستطلع طلعه وأكتشف أصله وفصله واذ ذاك حانت مني التفاتة نحو موقف القارب فألفيت رفقائي في عرض البحر يجذفون بكل ما استطاعوا من القوة كأنهم يفرون من خطر عاجل يتهددهم وفعلاً كان خلفهم مارد

عتيد يعدو في الماء كي يدركهم الا أن المسافة بين العدوين كانت عظيمة جـدًّا فلم ينل أربة بل ارتد على أعقابه خائباً محسوراً . ولما أدركت المصيبة التي أوقعني فيها كثرة التساؤل وحب الاستطلاع انخلع قلبي وطار لبي وجريت في هذه القفار قصد الفرار من ذلك الشقي الهائل حتى حال بيننا جبل شامخ يفصل الساحل عن المزارع الخضراء والحقول النضرة التي أدهشني علو النبات فيها لا سيما الحشيش والحلا فأنه يبلغ أكثر من عشرين قدماً . ثم سرت بين المزارع والرياض نحو ساعة من الزمان في فج واسع تحفه من كل جانب أرفة تزيد عن مائة وعشرين قدماً في الارتفاع تتخللها اشجار تحلق في السماء فلا يدرك نهايتها البصر بل ينقلب اليك خاسئا وهو حسير

وبينما أنا سابح في بحار الأفكار وقد ألقيت لنفسي العنان في الأعجاب بقدرة الخالق العظيم اذ انحجبت الشمس وعرا الأرض ظلمة لا يخترقها شعاع من نور أو نار ولاح أمامي جبل شامخ في شكل انسان قد صوب خطواته نحو المكان الذي كنت فيه راقدا أتأمله وطول كل خطوة يخطوها أكثر من عشرة

أمتار فهرب مني الدم واصطكت أسناني وركبني من الذعر والفزع وصرت أجري ذات اليمين وذات اليسار لعلي أجد مخبأ تعمى عن رؤيته الأبصار حتى لا أقع في قبضة ذلك المارد الجبار وأخيراً آثرت أن أرقد بين عيدان القمح وأتوارى وسط ذلك النبات الذي يبلغ من الارتفاع عشرة أمتار فأبصرت ذلك المارد قد وقف والتفت خلفه وتكلم بصوت تندك لقوته الجبال فحضر اليه سبعة من أمثاله يحملون محاصد في طول ستة مناجل دلني لباسهم وهيئتهم على أنهم من خدمه أو عماله فسمعوا أمره وانطلقوا يحصدون القمح بسرعة البرق حتى قاربوا مرقدي فتيقنت أن الأجل قد انصرم حبله وآن وقت الحمام وطفقت أندب سوء حظي وامرأتي وأولادي الذين يعيشون يتامى من بعدي لا يجدون من يدرأ عنهم نوائب الدهر وعاديات الزمان وأوبخ نفسي الأمارة بالسوء التي دفعتني الى السفر والاغتراب فأوقعتني في بلاد لا أصل فيها الى قد الحشرات فضلاً عن الجرذان بعد أن كنت أعظم ما رأت الأعين وسمعت الآذان في بلاد ليليبت المختزلة يتناقل ذكرى الأحفاء عن الأجداد وينسجون على حوادثي

القصص العجيبة والخرافات ثم سرح فكري في غرائب المخلوقات فأدركت أنه ليس بالمستحيل أن توجد في العالم أمة أدق وأصغر من اهالي ليليبت ليختالوا عليهم ويستهزئوا بهم كما وجدت أنا البرهان على ضعفي ودقتي في بلاد بربدنجناج وهل يستطيع العقل أن يحكم بأن الكبر والضخامة انتهت في هذه المخلوقات ؟ كلا فأن سر الخليقة عزيز لا تصل الى سبر غوره العقول ولا يدرك كنهه أنسان

ولم أستفق من هذه الأفكار والخيالات ألا على قصف المحاصد وقطع سنابل القمح من سوقها وقد أبرق النصل أمام عيني كأنه الموت الزؤام فاستجمعت كل قواي وزعقت زعقة رعب وهلم أستوقف ذلك المارد حتى لا يطأني تحت قدمه أو يقطعني شطرين بسلاحه الحاد ولحسن الحظ طرق صوتي أذن ذلك الفلاح فأطرق يفتش في الأرض على مصدر الصوت حتى أبصرني أمامه وسحنتي تتقلص خوفاً وذعرا فدهش لرؤيتي ولبث يتأملني بأمعان ثم قبض عليّ من وسطي بين أنامله كأنه يخشى أن أكون حشرة لادغة فتجلدت ولم أبد حراكاً (مع أن

قبضته آلمتنى كثيراً) كيلا تشمئز نفسه منى ويرمينى على الأرض فأسقط من ارتفاع ستين قدماً على الأقل وتكون تلك

(جلفر يتأمله المارد)

الرمية قاضية على حياتي . ولكن النفس لا تحتمل الألم طويلا بدون شكوى أو أنين وقد خانتنى العبرات وسقطت دموعي

الساخنة على يده وأشرت الى جنبيّ مستعطفاً فأدرك ما كنت أبغي ووضعني في جيبه وجري نحو سيده وقص عليه خبري

فأخذ المزارع عوداً من الخشيش في حجم منسأة الراعي وأزاح بهـا أطراف جبتي ليرى ما تحتها ونفخ في شعري حتى تنكشف له كل أجزاء وجهي ودعا بخدمه وعماله وسألهم عما اذا كانوا قد شاهدوا حيواناً مثلي من قبل ثم ألقاني في الأرض على يديّ ورجليّ ليرى كيف أتحرك فقمت واقفاً وتمشيت أمامهم ذهاباً وجيئة ليعلموا أني لست من ذوات الأربع ولا حيواناً مستوحشاً أهرب من بين أيديهم لآوي الى وكري في البرية ولما رأوا ما فعلت قعدوا حولي يشاهدون حركاتي وسكناتي فخلعت قبعتي وانحنيت لهم انحناء التعظيم والتبجيل واستخرجت كيس الدراهم من جيبي وقدمته الى ذلك السيد العظيم فأخذه في يده وصار يقلبه بدبوس كان في كمه وبعد ذلك رده اليّ فأخرجت الدراهم والدنانير وعرضتها عليه فلم يفهم ما هي وطلب مني بالأشارة أن أعيد كل شيء الى مكانه

ولا بدع أن هـذه الحركات والأفعال التي أتيتها أمام

ذلك المزارع أثرت فيه تأثيراً عظيماً حتى أيقن أنى حيوان مفكر له عقل وأدراك فشرع يخاطبنى بعبارات التلطف والانعطاف ولكنى لم أقو على تحمل ذلك الرعد القاصف فجعلت أصابعي في آذانى من تلك الصواعق وأجبته بأعلى صوتى وبكل اللغات التي أعرفها فلم يفقه من القول شيئاً وأخيراً صرف عنه خدامه وأخرج منديله وطواه على كفه وأومأ اليّ أن أقعد فيه ثم أدمجنى في المنديل وحملنى الى داره ودعا زوجته لتشاهد ما أوقعت الأقدار بين يديه ولكنها ما كادت تلمحنى حتى صرخت وتقهقرت مستنكرة مستبشعة كما يفعل نساؤنا عند ما يرين وزغة أو ضفدعة في يد صبي يتلاعب بها الى أن أبصرت من سلوكي وحركاتى ما ردها الى صوابها وجعلها تحبنى وتعطف عليّ عطفاً كبيراً

وكان وصولنا الى الدار نحو الزوال فمدت المائدة على ارتفاع ثلاثين قدماً من الأرض ووضعنى سيدي عليها بعد أن جلس اليها هو وزوجته وأولاده الثلاثة وأقبلت خادمة تحمل صحفة الطعام وقطرها لا يقل عن أربع وعشرين قدماً ففرت لى السيدة شيئاً من اللحم في زكرة صغيرة وألقت بعض فتات

الخبز نحوي كأني كلب صغير فانحنيت شاكراً وأخذت شوكتي وسكيني من جيبي وشرعت آكل بطريقتنا المعهودة وبعد ذلك قدمت لي كأساً صغيرة طافحة بخمر لذيذ الطعم سعتها ثلاثة لترات تكبدت مشقة عظيمة فى رفعها الى فمي وشربت نخب السيدة وخاطبتها بعبارات رقيقة وصوت عال فضج القوم يضحكون ويقهقهون حتى خيل الىّ أني على فوهة بركان فى حالة الثوران

ثم دعاني مولاي نحوه فأقبلت مليبا واذا بأصغر أولاده قد قبض على رجلي ورفعنى الى حالق حتى ارتعدت فرائصي وخشيت ان أتهشم اذا هو خلاني من هذا الارتفاع المخوف ولكن أباه اختطفنى منه وصفعه صفعة شديدة وطرده من الحجرة فخفت أن يحنق الصبي علىّ لأني كنت السبب فى هذا الاذى ويفتك بى اذا عرضت له فرصة مناسبة فتوسلت الى والده بالاشارة ان يصفح عنه ويرده الى مكانته الأولى ففعل منشرحاً مسرورا

وفى أثناء الكرزمة (طعام الظهر) أتى قط ضخم الخلقة كبير الرأس فى حجم ثلاثة ثيران وطفر على حجر السيدة لتطعمه بما بقي لديها من فتات الخبز وبقايا اللحم فما نبضت لى منه فريصة

ولا انتابني قلق بل تمشيت على المائدة بكل بسالة وجراءة نحو ذلك القط الهائل لعلمي ان الاقدام يقهر الأسود الكاسرة فانكمش فى حجر سيدته عاقرا أسدا

ثم أتت مرضعة تحمل بين أحضانها طفلا رضيعاً في بدء حياته وما كاد يراني حتى أشار نحوي يريد أن يتخذني لعبة له وصرخ وبكى ولج فى الطلب حتى وضعوني بين يديه فقذفني فى فمه كما يفعل الأطفال فى بلادنا بكل شيء يحصلون عليه ولم تكد رأسي تدخل فى حلقه حتى زعقت زعقة شديدة فزع منها الولد ورماني من بين يديه ولو لم تدركني ربة البيت بسرعة وخفة لوقعت على الأرض صريعا

ولما فرغوا من الأكل خرج رب البيت وخلفني فى حماية زوجته وقد أضناني حينئذ ما قاسيت فى الصباح واستولى عليّ النعاس فأخذتني الى فراشها وغطتني بمنديل أكبر من قلع سفينة حربية وبعد ساعتين أفقت من سباتي العميق أتعرف ما حواليّ من الفرش والأثاث وكانت ربة الدار قد خرجت تباشر حركة الخدم وباقي الأعمال المنزلية فأبصرت على السرير

فأرين هيكلين يتأهبان للوثوب عليّ ولا قدرة لي على الفرار منهما لبعدي عن الأرض بمقدار خمس وعشرين قدما فجردت حسامي أدافع به عن نفسي وقد وازرني الجد وحسن الطالع فأصبت أحد الفأرين في مقتل فوقع مجندلا يتخبط في دمائه وأما الثاني فلم يشأ أن يلحق برفيقه الى الدار الآخرة بل فر الى جحره وأراحني من مذبحة أخرى . وبعد هذه المعركة العنيفة بزمن يسير عادت السيدة لتبعثني من نومي فهالتها رؤية الدم وهو يقطر من حسامي وحسبت ان قد أصابتني كارثة فاجعة فهدأت روعها وأزلت ما انتابها من الانزعاج والقلق وأشرت الى ذلك الفأر المقتول فانشرحت وأكبرت شجاعتي وبسالتي

(جلفر يصارع الفأرين)

وهنا أخشى أن يستولى الضجر والملل على القراء عند ذكر

هذه الحوادث لانهم ربما عدُّوها تافهة لا يجمل شرحها بهذ
الأسهاب ولكنها أثرت فيّ تأثيرا لا يزول من مخيلتي فأرجوهم
المعذرة والصفح الجميل

obeikandl.com

الفصل الثاني

كان لمولاتي ابنة صغيرة لم تناهز التاسعة من عمرها قد ربتها أمها أكمل تربية حتى أحسنت الخياطة والتطريز وتفصيل اللباس لبنت صناعية كانت تميل اليها كل الميل وتعتبرها ابنة صغيرة لها تمشطها وتقص شعرها على الطراز المنتشر فى ذلك العهد وتلاطفها بعبارات المناغاة والمداعبة كأنها طفلة حية فعلا وأعدت لها سريرا صغيرا بشكل أرجوحة تضعها فيه ساعة الرقاد وتغني لها من أغاني الأطفال ما لذ وطاب حتى كنت أحسبها أما محنكة فى تعهد الأطفال

ولما رأت هذه الغادة ضآلة جسمي ودقته بالنسبة الى أبدانهم المارديه هجرت ابنتها الصناعية واتخذتني مكانها تلاعبني وتداعبني وتشتغل براحتي وتنعمي بكل ما أطلب وأشتهي وأعدت سرير ابنتها الصناعية ليكون لى فراشا آوى اليه فى أوقات النوم

ولم تكتف بذلك بل ضاعفت العناية والسهر للمحافظة على حياتي من فيرانهم المؤذية وعلقت سريري بل أرجوحتي الى رف فى حجرة نومها حتى لا تفتك بي تلك الحيوانات المفترسة ثم شرعت تخيط لي اللباس فى أحسن هندام وأجمل شكل وتلبسني بيديها كأني ضعيف العقل والحيلة لا أزال فى سن الرضاع ولم تترك أمر تهذيبي للمصادفة بل أخذت تلقنني لغة بلادها وتعلمني الاسماء كلها حتى استطعت أن أعبر عما أطلب بعبارة لا يتعذر فهمها وأطلقت عليّ اسم جرلدرج ومعناه الرجيل ونحا نحوها أهل بيتها ثم سائر أهالي البلاد حتى الملك نفسه لما دخلت فى خدمته وأطلقت عليها أنا كذلك اسم جلد الكلتش ومعناه الحاضنة الصغيرة وصرنا لا نفترق طول مقامي بتلك البلاد حتى اشتدت بيننا الروابط ولم يهنأ لنا عيش ما دمنا منفصلين. وقد فرجت كل كروبي فى وحدتي ونجتني من كثير من المخاطر والمخاوف التي أوقعتني فيها الأقدار فأليها ينبعث قلبي بجميل الشكر وعرفان الجميل وأدعو الله ألا يصيبها بسببي أذى أو شقاء

ولقد شاع في طول البلاد وعرضها أن مولاي عثر فى

مزارعه على حيوان دقيق في قد عصفور الا أنه يماثل الانسان تماثلا تاماً ويمثله في جميع حركاته وفعاله يمشي على قائمتين فى أعدل قوام ولونه أرق من بشرة بنات النبلاء فى حداثة سنهن وهو أنيس رقيق يدرك الاشارة والحديث ويفعل ما يطلب منه فدفع العجب والاستغراب أحد الجيران للحضور ليشفي غلة تشوفه واستغرابه فأوقفني مولاي على منضدة أمام جاره وأمرني أن أتمشى وأجرّد حسامي وأطعن به فى الهواء ثم أغمده وأنحني لضيفه انحناء التكريم والتبجيل وأسأله بلغته عن حاله وصحته وكان ذلك الرجل عجوزًا هرماً ضعيف النظر لا يبصر الا بمنظار يضعه على عينيه كي تنجلي له المرئيات واضحة ظاهرة ولما وضع منظاره على عينيه استغرقت فى الضحك لغرابة منظره حتى سقطت مني الدموع فسألني مولاي عن السبب فأجبته أن المنظار تمثل لي كأنه كوتان فى وجه الرجل ينبعث منهما نور القمر فضحك جميع الحاضرين من هذا الخيال الغريب ولكن ذلك العجوز الفانى حمل فى صدره الحقد والضغينة من هذا المجون والهذر وصمم على أن يجرعني كؤوس الأذى والالم

وهمس فى أذن مولاي ناصحاً له أن يعرضني فى الاسواق كأعجوبة غريبة نادرة يكون من ورائها كسب عظيم وثراء طائل كما أخبرتني جلمد الكتش فى الصباح عند ما سمعت القصة من أمها

(أصحاب الفلاح يشاهدون جلفر)

ولقد حزنت الصبية لهذا النبأ المكدر وجعلت تبكي وتتوجع اشفاقاً عليّ من أن يصيبني أذى من تعدي الغوغاء والسوقة الذين يحضرون لمشاهدتي خصوصاً وانها كانت ترى مني الشمم والاباء فلا أحتمل أن أعرض أمام العامة فى الاسواق ولقد ساءها كذلك نكث والديها بوعدهما ألاَّ يشاركها أحد فى حيازتي وتذكرت لهما جناية أخرى من هذا القبيل فى العام

الماضي لما باعا شاة لها حالما وجداها سمينـــة ولكنى لم أعبأ بما توقعته من السخرية والاستهزاء وأنا ضعيف غريب فى بلاد أهلها مردة ليس لي بينهم حول ولا قوة فلا يكون هذا العرض وصمة عار تلصق بى طول حياتى عنـــد عودتى الى بلادى بل كنت بالعكس شديد الميـــل الى هذا العرض عسى أن أجد فيه سبيلاً الى الخلاص

وفى يوم انعقاد السوق وضعوني فى صندوق له باب من احدى جهاته لدخولي وخروجي وجعل فى سقفه عدة فتحات صغيرة للتنفس ولم تنس حاضنتي أمر راحتي بل فرشت لحافي فى قعر الصندوق حتى لا يؤلمنى اهتزاز الحركة وقت السفر ولما تأهبنا للرحيل بهذه الكيفية حضر مولاي بحصانه وأردف ابنته خلفه وهي تحملني وسرنا نحو نصف ساعة اجتزنا فيها ما يقرب من مائة وعشرين ميلا لأن الحصان كان يقطع أكثر من أربعين قدما في كل خطوة ويرتفع وينخفض في عدوه لدرجة جعلتني أخال أنى على ظهر سفينة صغيرة في بحر خضم وسط عاصفة مروعة وبعد مقاساة آلام شديدة من زعزعة صندوقي

وتخبطي في جدرانه انتهينا الى القرية التي يعقد فيها السوق وترجلنا عن الدابة على باب نزل صغير فاختلى مولاي برب الدار زمنا غير قصير رتبا فيه النظام اللازم وبثا المجابين في القرية ليعلنوا أهلها ان نزل « النسر الأخضر » قد استحضر حيوانا صغيرا يماثل الأنسان شكلا وحركة وكلاما ويلعب ألعابا مدهشة تسر الناظرين

ولم يكد الخبر يصل الى آذان الأهالي حتى انهالوا على النزل يتسابقون للدخول فعرضت عليهم في أكبر حجرات البيت على منضدة طويلة وحاضنتي خلفي تدبر حركاتي وسكناتي وكلامي وألعابي حتى بهر الحاضرون خصوصاً لما رأوا مهارتي وبراعتي في أساليب المصارعة بالسيف « والنبوت » لاني كنت قد تدربت على هذه الصناعات أيام الصبى والشباب وما انفضت طائفة من الشهود الا وأعقبتها أخرى تتألف من ثلاثين شخصا كنت أقوم أمامهم بأداء جميع الحركات دورا بعد دور ولبثت في هذه الحال مدة ثماني ساعات شاهدني فيها اثنا عشرة طائفة حتى كلّت قواى وانحلت مفاصلى واطّرحت في صندوقي خائر

القوى أتلقف النفس كأنى مريض يتنازع روحه من بين مخالب الموت الزؤام

(جاثر وهو معروض في السوق)

و بعد أن أعلن مولاى للجمهور عزمه على أن يعرضنى يوم السوق الآتي عدنا الى الدار وأملت أن أصيب من الراحة قسطا ينسينى ما قاسيت من الكد والتعب ولكن مولاى

دفعه بريق الدرهم والدينار في ذلك اليوم الى المزيد فجعل بيته معرضا يعرضني فيه على كل الطالبين الذين قدموا من كل فج عميق يبذلون المال بسخاء ليشاهدوا هذا المنظر الغريب في سائر الأيام ما عدا يوم الاربعاء فهو يوم الراحة والعبادة في تلك البلاد

لم يكتف مولاى بالمال الذى أصابه من القرى القريبة بل عزم على أن يعرضني فى المدائن العظمى والحاضرات في طول البلاد وعرضها وبني على ذلك العلالي والقصور وأخيرا رتب جميع أشغاله الداخلية وأحواله الزراعية بينما كانت حاضنتي تعد معدات راحتي فعملت لي صندوقا كبيرا غطت جميع جدرانه بقماش ناعم سفيق محشو بالقطن الطري حتى لا يؤلمني اصطدامي بها اثناء السير

وفى يوم ١٧ اغسطس سنة ١٧٠٣ خرجنا صوب كورة البلاد وكانت على بعد ثلاثة آلاف ميل من قريتنا وسرنا في الطريق نهب الارض بسرعة مدهشة مزعجة وكلما بلغنا بلدا نزلنا جميعاً ليقام لي معرض كبير تؤمه كل طبقات الناس ولم يستنكف مولاي من عرضي فى قصور السراة والاغنياء ما داموا يدفعون

له من المال ما يسد جشعه وطمعه

وفي يوم ٢٦ اكتوبر وصلنا الى تلك الكورة واسمها لوربرلجرند ومعناه فخر العالم فاكترى مولاي منزلاً في أحد الشوارع الكبرى قريباً من قصر الملك ونشر الاعلانات وبث النجابين يستحثون الاهالي على انتهاز هذه الفرصة النادرة المثال والأسراع الى مشاهدة تلك الأعجوبة المدهشة وأعد للعرض حجرة مساحتها اربعمائة قدم وضع فيها منضدة طولها ستون قدماً أحاطها بحاجز ارتفاعه ثلاث أقدام كيلا أسقط وقت القيام بأدواري وكنت أعرض عشر مرات في اليوم فأنهكني التعب والكد حتى انتحل جسمي وذبل لوني وأشرفت على الهلاك

ولقد وصلت في هذه الاثناء الى علم كبير بلغتهم لأن حاضنتي لم تترك فرصة لتحسيني وتهذيبي ألا انتهزتها فعلمتني الكتابة والقراءة من كتاب ديني للبنات كان دائماً معها أينما ذهبت بغيره لا يرتاح لها بال ولا تلبث على حال

الفصل الثالث

كلما رأي مولاي الدرهم والدينار ينصب عليه من عرضي أمام الشهود ازداد طمعاً في المال وجمعه فلم يترك لي ساعة للراحة حتى هزلت و تململت وأمسيت جلداً على عظم لا أجد شهية للطعام او الكلام ولا قوة على القيام بالادوار المطلوبة مني فأدرك الفلاح أن منيتي قد دنت وأن الربح الذي أوتيه أوشك أن ينقطع عنه بموتي فاختلى بنفسه يفكر في ذلك الخطب المنتظر واذا بالملكة أرسلت اليه أحد حجابها يأمره بحملي اليها بدون امهال لانها قد سمعت عني من غرائب الاخبار ما جعلها تتلهف لرؤيتي

ولما مثلت بين يديها وقفت على الارض أقبل قدميها فرفعتني على منضدة أمامها وأعطتني خنصرها أقبله فاحتضنته بين ذراعيّ ولثمت طرفه بكل احترام وخضوع . ثم سألتني عن

حالي و بلادي وأسفاري فأجبتها بعبارة رقيقة موجزة راقت لديها وأعجبتها لما فيها من أمارات الادب وحسن الذوق فعرضت عليَّ البقاء في خدمتها والتمتع بملذات الحياة ونعيمها في قصرها فطربت وانتعشت للتخلص من ذاك الفلاح الشره القاسي الذي كاد يوردني موارد الحمام فاشترتني منه بألف جنيه ذهباً قبضها في الحال ولم يمانع في بقاء ابنته بالقصر كما طلبت بل اثنى على عقبيه خوف النكوص في هذه الصفقة الرابحة

ولقد لاحظت الملكة عند خروج الفلاح أني لم أقرأه تحية أو سلاماً فأجبتها بأن فراقه سرَّني أيما سرور لان غلظته وقساوته في معاملتي وعرضي على الناس الساعات الطويلة كل يوم لم تبق في شعوراً نحوه بشكر أو ولاء على ايوائي في بيته خصوصاً وأن المال الذي ناله من ورائي يفوق ما يستحق من المكافأة والجزاء ولو لم يرَ هذا الجاهل القاسي شدة سقمي واتحال جسمي لما باعني بهذا الثمن البخس غير أني شعرت بمعاودة الصحة والعافية بوجودي في كنف هذه الملكة العظيمة الجاه فلا أخشى في ظلها قساوة او سوء معاملة

فدهشت الملكة من هذه العبارة الرقيقة والاحساس الشريف لاسيما وأنه صادر من حيوان دقيق مثلي فأخذتني الى جلالة الملك وهو في حجرته الخاصة تسليةً له من عناء الاعمال والاشغال ولكنه اشمأزّ لرؤيتي وعنف زوجته وانتهرها على حملها ضفدعة فى يدها وادخالها عليه فى وقت يؤثر فيه العزلة والسكينة لتدبير مهام ملكه ولم يدرك أنها تحمل فى يدها انساناً كسائر البشر غير أن الملكة لم تعبأ بغضبه وسخطه بل أنزلتني على مكتبه وأمرتني أن أقصّ عليه خبري فساورته الحيرة واستولى عليه الدهش والاستغراب خصوصاً عند ما دخلت حاضنتي وأمنت على كل ما قلت

ولكن الملك لبث فى حيرته يتراوح بين الشك واليقين فى صدق الخبر لأن الخيال لم يستطع أن يصوّر له انساناً في هذا القد الدقيق والجرم الضعيف وأخيرًا استدعى ثلاثة من كبار علماء بلاده وفلاسفتها ليحلوا ذلك اللغز المعمي ويحللوا وجودي برأي علمي حكيم فاختبروا كل بدني قطعة قطعة ودرسوا جميع أعضائي فظهر لهم من تشكيل يديّ وقدميّ أني

لست حيواناً متسلقاً أسكن الاشجار وأتغذى بالفاكهة ولا نباتياً آكل الاعشاب والحشائش لان شكل أسناني يدل دلالة واضحة لا ريب فيها على أني من الحيوانات التي تتخذ اللحوم غذاء لها ولكنهم نبذوا هذا الرأي احتجاجاً بأن اصغر حيواناتهم يكاد يكافئني جسماً وربما زاد عني قوة وسرعة فلا أستطيع أن أصيد منها ما يقوم بحياتي وأخيراً بعد كثرة البحث والدرس والقياس والمقارنة والفروض والنظريات وصلوا الى اكتشاف السر الحقيقي اذ عدوني مما يسمونه فلتات الطبيعة كما هو دأب علمائنا الاوربيين في كل ما يعجزون عن ادراكه

وقد حملهم قصر نظرهم على تكذيبي عند ما أخبرتهم أني فرد من أمة كلها بهذا القد الدقيق لها حيواناتها ونباتات بالاحجام المناسبة تتغذى منها وتنتفع بالاعمال الجليلة التي تقوم بها ولها بيوت مشيدة وقصور رفيعة البنيان تأوي اليها وتسكنها . فرمقوني بنظرات ملؤها الازدراء والاحتقار معتقدين أن هذا من شدة التفنن في حسن السبك والتضليل على الناس لأن العلوم والفلسفة المقرونة بالتجربة الصادقة تنفي وجود مثل هؤلاء

الأقزام

ولكن الملك ابتدأ يتحول عن هذا الجمود المطبق وطلب الفلاح الذي باعني وسأله في خلوة عن حقيقة أمري ثم واجهني به وبحاضنتي الصغيرة حتى تحقق لديه أخيراً أن الأمر كما حكيت وأن العقل السليم لا يصح له أن يجزم باستحالة وجود أمة دقيقة كامتي في هذا العالم بعد ما أنس مني ما أنس من الفطنة والذكاء ووافق على بقائي في خدمة الملكة أنا وحاضنتي الصغيرة وأعد لنا جانب من القصر وأحطنا بالخدم والحشم للقيام بجميع شئوننا وحاجاتنا فدعوت أليّ أمهر النجارين وكانت له شهرة فائقة في صنع الاشياء الدقيقة والألاعيب الأطفال وكلفته بعمل بيت صغير مكون من غرفتين واحدة للنوم والأخرى للاستراحة والجلوس وله نوافذ من زجاج وباب يغلق ويوصد عند الحاجة وسقفه يتحرك على مفصل وينفصل بالمرة لأخراج الفراش وأدخاله بعد نشره في الشمس والهواء كل يوم وقد نجدت جميع جدره وسقفه وأرضه حتى لا يصيبني أذى من الاهتزاز عند السفر او التنزه ثم صنعوا من الأثاث كراسي وخواناً من شيء يشبه العاج

وضعتها فى حجرتى للجلوس والأكل وكانت الملابس عقدة العقد التى حار فيها الخياطون لتعذر وجود قماش سخيف بالدرجة المناسبة لجسمي وأخيرا عملوا لى حللا من أخف الحرير وأحسنه الذى لم يزد عن سمك ملحفة مغربية فلبستها مكرها متألما ألى أن ألفتها أخيرًا بالاعتياد

ولقد أولعت الملكة بمنادمتى حتى لم تكن لتتناول الطعام دون أن أكون جليسها آكلها وآمازجها وأنا على كرسي فوق مائدتها العظيمة وأمامي مائدتى وآنية من فضة صنعوها لى بالأحجام المناسبة وعند فراغي من الأكل كانت حاضنتى تغسلها وتضعها فى علبة صغيرة تحملها فى جيبها ولم يشاركنا على المائدة ألا الأميرتان ابنتا الملكة وكانت أحداهما تناهز السادسة عشرة والأخرى أصغر منها بثلاث سنين تقريباً .

وكانت الملكة تقطع لي قطعة اللحم الدقيقة فى نظرها وتضعها فى أحدى صحافى وتطفق تراقبنى هي وبنتاها بكل انشراح وسرور وأنا أعمل السكين فى تقطيعها قطعاً تلائم قدى ودقتي وتقول من عبارات الفكاهة والمزاح ملحا تملأ القلب طرباً وارتياحا ولكن

بقدر سرورها كان تألمي من فظاعة منظرها شي و بشيها وأفواههن مفتوحة يلتهمن من اللحم والخبز فى لقمة واحدة ما يملأ بطون أكثر من عشرة من الفلاحين وشربهن يكافئ ما يأكلن حتى خلت أنى عثرت على الأغوال التي لم ندركها فى بلادنا الا فى الخيال وتأبى اليقظة التصديق بوجودها

وقد اعتاد الملك ان يتناول الطعام كل أربعاء مع أسرته وانجاله الفخام وأن أكون أنا فى زمرتهم لأنه أحبني حباً جماً وكان يتسلى بحديثي معه ووصف قومي و بلادي وعاداتهم وعلومهم وحضارتهم ودياناتهم وحكوماتهم فدفعني حب الفخار وخوف الاحتقار أن أبين له تقدم بلادي فى الصناعة والعلوم وانتصاراتنا الباهرة فى البر والبحر وانقسامنا فى الدين الواحد وتشيعنا الى أحزاب واجناس فضحك حتى استلقى والتفت الى رئيس وزارته وقال له ألا ترى أن عظمة الأنسان وكبرياءه لشيء سخيف حقير اذا كان مثل هذه الحشرات يحاكيه فى جميع أعماله وسياسته وليس بمستحيل أن يكون لهم ألقاب ورتب ووسامات يتباهون بها و يتفاخرون وحفر وعشوش تضمهم وتجمعهم فيكونون

البيوت والقرى والمدائن والحاضرات ويتبهرجون بفاخر اللباس وجميل الرياش ولهم مشاهد في الغرام والحرب والنزال يتلذذون بالمنازعات والمخاصمات والغش والخيانات . ولبث على هذا المنوال فى غلوائه وتمريضه وانا صامت أكاد أتميز من الغيظ لما ألم التهكم والسخرية ببلادي مع انها فاقت جميع أوربا في العلم والصناعة والقوة والحضارة بجميع فنونها وضروبها فهممت بالاعتراض عليه في أقواله لولا أن دقة جسمي أذكرتني قيمتي الحقيرة بين هؤلاء الناس العظام فتحملت الاهانة صاغراً حتى انطبع في نفسي الازدراء بجميع أهالى أوربا عظيمهم وحقيرهم سيدهم ومملوكهم واعتقدت أنى لا أقل عن جلالة الملك هذا في الضحك عليهم والاستهزاء بهم لو رأيتهم أمامي وهم في حيلهم وغرورهم يتنافسون ويتسابقون معجبين بأنفسهم الدنيئة الخسيسة كأن الارض ما عليها الا هم وزاد هذا الاحساس تأثيراً عند ما كنت أشاهد نفسي في المرآة وأنا واقف على كف جلالة الملكة حتى احتقرت نفسي وكل من ماثلني من بنى آدم أي احتقار وخيل الي أنى نقصت في الجسم الى درجة

مضحكة مخزية

ولقد أوقعتني دقة جسمي في مآزق مؤلمة موجعة مزرية وكنت أتحمل من الاهانة والاساءة من قزم الملكة ما يزهق الروح لانه كان يختال عليّ ويتباهى بضخامة جسمه وعظم جرمه مع انه أصغر ما يكون بين قومه ويرميني بألفاظ السخرية والاستهزاء حتى جعلني ضحكة بين الناس ولم أجد حيلة في هذه الظروف الا أن أجيبه بمثل عباراته فاغتاظ مني مرة غيظاً شديداً كاد يتميز منه وانتهز فرصة كنت فيها لاهياً عنه وحملني من وسطي وقذفني في ابريق فضي مملوء بالقشدة وولى مسرعاً حتى لا يدركه أحد ولولا مهارتي في السباحة لأدركتني المنية خنقاً في ذلك الابريق ولما رأت حاضنتي هذه المصيبة أسرعت لتجدني وانتشلتني من ذلك البحر العميق ثم أخذتني الى فراشي بعد أن غسلتني فمكثت ساعات قمت بعدها معافى والحمد لله أما ذلك الشقي الشرير فجلد حتى كاد يعدم الحياة وأمر بأن يشرب القشدة التي وقعت فيها ومن ذلك اليوم انخفضت مكانته ووهبته الملكة احدى نسائها فاريحت من مضايقته وشروره

وفي هذا الصدد أتذكر له فصلاً مضحكاً جداً اذ رأى على المائدة أنبوبة عظم طويلة فقبض عليّ من أرجلي ودسني في جوفها الى وسطي حتى لم أستطع الخروج من ذلك المضيق وأبى شرفي أن أستغيث فلبثت بضع دقائق في أشد الآلام حتى أدركت الملكة ما حصل وأمرت باخراجي من هذه الأنبوبة ولو لم أستشفع لهذا الغر الشقي لأصابه من الاذى أكثر من الجلد المؤلم

وكثيرًا ما كانت الملكة ترميني بالجبن في مزاحها لانها كانت ترانى شديد القلق والرعب من مجيء الذباب على وجهي ولم تتصوّر أن هذا الذباب لا يقل عن العصفور جسماً وأنه كان يلدغني وينفث في وجهي تلك المادة النتنة التي بها يستطيع أن يمشي على الاسقف دون أن يسقط ورأى القزم هذه وسيلة يكيد لي بها فصار يجمع عدداً من هذا الذباب في يديه ويقذفه في وجهي فأضج وأتألم وأجرد حسامي فأقتل عدداً منه بمهارة فائقة وسرعة عظيمة جعلتني موضع الاعجاب والاستحسان

ولا أنسى مقدار الرعب الذي استولى عليّ عند ما دخل غرفتي بعض الزنابير تجتذبها رائحة فطير كنت آكله فى الفطور واختطفته منى فجردت ذلك الحسام الذي نصرنى فى كثير من المواقف والمخاطر وقتلت أربعة منها وفرّ الباقي من النافذة وقد احتفظت بهذه الحشرات وحنطتها وأخذتها الى بلادي ضمن التحف التي جمعتها

الفصل الرابع

بعد أن وصلت بالقارىء الى هذه النقطة أظنني أراه يتشوف كثيراً الى وصف هذه البلاد ويؤنبني في الخيال على اغفال أمر كان جديراً بالاسهاب فلكيلا أتركه يتململ ويتضجر أقول ان هذه البلاد شاسعة واسعة تبلغ ستة آلاف ميل في الطول ومن ثلاثة آلاف الى خمسة آلاف في العرض غير أن رحلاتي فيها كانت قاصرة على مصاحبة جلالة الملكة في غدوها ورواحها ولأنها كانت جثامة لا تميل الى السفر والاغتراب لم نبلغ بعداً أقصى من ألفي ميل تقريباً

ومن هذا البيان يظهر جلياً أن الجغرافيين في أوربا أخطأوا خطأً فادحاً في اغفال هذه القارة العظيمة فينبغي لهم اصلاح هذا النقص في خرائطهم ولا أضن عليهم بالمساعدة متى طلبوها وهذا القطر في شكل شبه جزيرة تحفه جبال شامخة لا تنقص

عن ثلاثين ميلا في الارتفاع ولا يمكن اجتيازها بأى واسطة كانت لكثرة البراكين فيها ولا يعلم الا الله ما وراء هـذه الجبال وما يسكنها من المخلوقات والبحر يكتنفها من الجهات الأخرى الا أن السواحل كلها صخرية صلدة لا تصلح للملاحة ولا لوقوف السفن فباتت منعزلة عن سائر الدنيا كأنها عالم منفرد في كوكب من الكواكب السماوية وفيها من الأنهار العظيمة الواسعة ما يناسب حجمها تمخر فيها السفن الهائلة مشحونة بالمتاجر والركاب والأسماك المارديّة الجسم تغدو وتروح في جوف الماء فيصطادون منها لطعامهم ما يشتهون ولكنهم يشمئزون من أسماك البحر التي كثيراً ما يقـذفها اليم على الصخور فينبذونها لدقة أجسامها وعدم ملاءمتها لطعامهم ما عدا الهائشة فانهم لا يأنفون منها بل يتنزلون الى تقديمها على موائدهم في بعض الاحيان

ويظهر أن البلاد آهلة عامرة فيها من الحاضرات احدى وخمسون مدينة وأكثر من مائة بلدة مسورة وعدد لا يحصى من القرى والحلل والعاصمة أحسن المدائن وأكبرها وأرقاها حضارة وعمـارة وهي قائمة على ضفتي نهر عظيم يشقها من وسطها

وتبلغ في الطول أربعة وخمسين ميلا وفي العرض ميلين ونصف ميل حسب تقدير عملته على خريطة طولها مائة قدم مدوها على الارض فخلعت نعليّ وطفقت انتقل من ناحية الى أخرى أقيسها حتى انتهيت الى هذا التقدير وأخاله مضبوطاً يمكن الاعتماد عليه

أما قصر الملك فشاسع واسع لا يقل محيطه عن سبعة أميال ولكن مبانيه بغير نظام أو ترتيب والغرف تبلغ مائتين وأربعين قدماً في الارتفاع وطولها وعرضها بهذه النسبة العظيمة وقد خصص لنزهتنا مركبة ملكية كانت تركبها حاضنتي وتأخذني معها ببيتي الصغير

واذ وقفنا مرة أمام بعض الدكاكين العظيمة التف حولنا جمع من المتسولين يطلبون الصدقة والاحسان ويبدون من العاهات البشعة المشوهة للخلقة الفظيعة المنظر ما تمجه النفوس ويقذى العيون فترى هنا ثدياً عارياً منتفخاً الى درجة هائلة من تأثير السرطان وبجواره رقبة عليها ورم لا يقل عن بالة قطن وقريباً منهما ذا رجلين من الخشب طول الواحدة عشرون قدماً

وهذه العاهات تبدو للعيان فتشمئز منها النفوس وتقشعر الأبدان وتتراجع عندها يد الإحسان فتنزل بالخسارة على المستجدى والمسئول سواء بسواء

ولما أنس القوم مني ميلا عظيما الى التنزة والخروج صنعوا لي بيتاً أصغر من الأول سهل الحمل في المركبة أو على الظهر وجعلوا له سيوراً يشدها الحامل على ظهره فتنجلي لي الدنيا ببهجتها ورونقها من ثلاث جهات لأمتع الطرف والقلب ببدائع الطبيعة وما صنعته الأيدي وما بهرني منظر أعظم من منظر الجيش وهو مصطف عند عرضه على الملك والعسكر ممتطون صهوة الجياد الضخام ومدججون بالسلاح

الفصل الخامس

صفا لى المقام في هذه البلاد ولذّ العيش وطاب لأني كنت دائماً موضوع رعاية والتفات لولا أن دقة جسمي سببت لى آلاماً ومعرّة جعلتنى فى غاية الكآبة والانقباض وحدثت لى حوادث مضحكة مخجلة لم أستطع تحملها الا على مضض فبينما كنت واقفاً فى حديقة القصر مرة وقد خلوت الى نفسي واذا بكلب من صغار الكلاب أقبل يعدو وقبض عليّ بين أنيابه العظيمة وأنا في رعدة من الخوف والفزع وقفل نحو البستانى صاحبه وألقانى على الارض ووقف يتبصبص أمامه كأنه أتاه بصيد سمين فارتعب الرجل وخشي سوء العاقبة وتوسل الىّ أن أكتم الامر لئلا تصيبه داهية أو عذاب أليم ولعمري انى آثرت الكتمان كيلا يفتضح الامر ويشيع فيعيرنى الصغير قبل الكبير والشريف مع الحقير

وكثيرًا ما كانت الملكة تسمع منى أقاصيص أسفاري فى البحار ومهارتى فى الملاحة بالقلع والمجذاف فأرادت أن تختبر مبلغ حذقي وبراعتي فأمرت النجار بصنع سفينة صغيرة من ألاعيب الاطفال أعدّ لى فيها كلّ أدوات الملاحة وعددها وأردفها بأجانة عظيمة طولها ثلاثمائة قدم وعرضها خمسون وعمقها ثمان ولها حنفية فى قعرها ليفرغ ما فيها من الماء كلما تأسن

فصرت أركب ذلك القارب وأسيّره وسط هذا البحر الصناعي تارة أعمل المجاذيف أدفع بها السفينة فتجري كالسهم اذا انطلق وطورًا أشد القلوع طلبًا للراحة من التجذيف ونقف نساء القصر بالمراوح فيثرن ريحًا عنيفة ترسلنا الى الامام بسرعة مدهشة وأنا أعالج القلوع أشدها مرةً وأرخيها أخرى وأظهر من أساليب المهارة فى الملاحة ما استدعى اعجاب جميع الحاضرين والحاضرات غير انه يومًا من الايام حصلت حادثة روعتنى وجعلتنى أكثر حذرًا فى ركوب ذلك البحر الصغير فعندما كنت راكبًا سفينتى اذ صعدت عليها ضفدعة كبيرة هائلة أمالتها حتى كادت تنقلب ثم شرعت تطفر من فوق رأسي

ذهابا وجيئة وتساقط عليّ من تلك المادة النتنة التي تفرزها

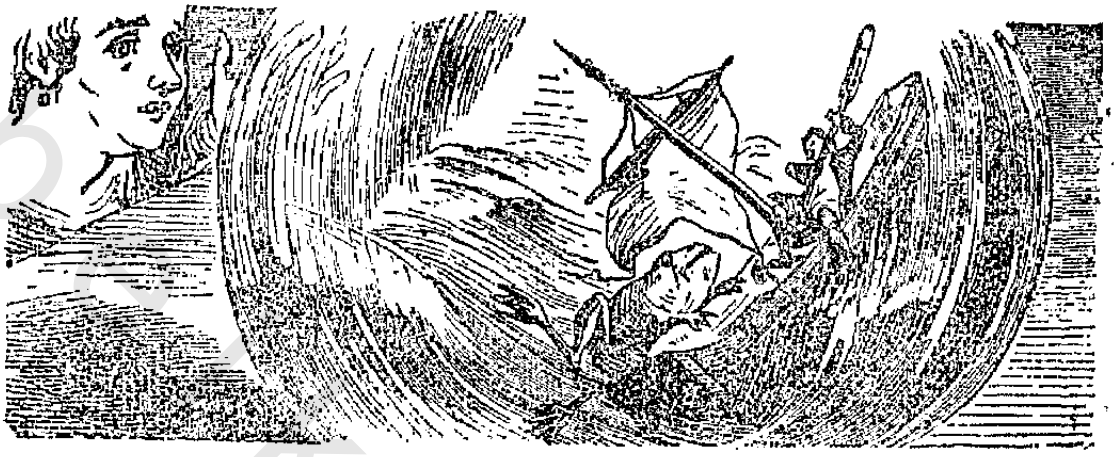

(جلفر والضفدعة)

فأسرعت حاضنتي لتجدتي من هـذا الخطر المحدق ولكنى خشيت التمريض والتبكيت الذى لا يلبث أن يكون نصيبي اذا استعنت بها على الخلاص من ضفدعة حقيرة وتوسلت اليها بكل عزيز لديها أن تتركنى أصارع تلك الدابة البشعة وقبضت على أحد المجاذيف وضربتها ضربات متتالية ألجأتها الى الفرار حتى تكون مكينة فى قرار

ولم ألاق خطرا فى هذه الديار أشد وأعظم مما وقع لي مع قرد اقتنصنى فأرانى الأهوال الشداد حتى يئست من الحياة اذ كنت جالسا فى غرفتي والباب موصد والنوافذ مفتوحة أتلقف

منها نسيما يخفف عني حرارة الصيف وأواره واذا بى أسمع شقشقة ونطا وطفرا ثم أطل قرد كبير الخلقة كريه المنظر وما رآنى حتى جعل يفتح فاه ويتمتم ويتبصبص فوقع الرعب فى نفسي وأسدت لا أستطيع حركة أو نطقا ثم احتضنى باحدى ذراعيه كالطفل فى يد الحاضنة وأخذ يلاطفني ولكن صوتا فى خارج الغرفة أزعجه فانطلق بي الى النافذة وطفر منها على سطح البيت وهكذا من عال الى أعلى وأنا فى قبضته حتى وصل الى

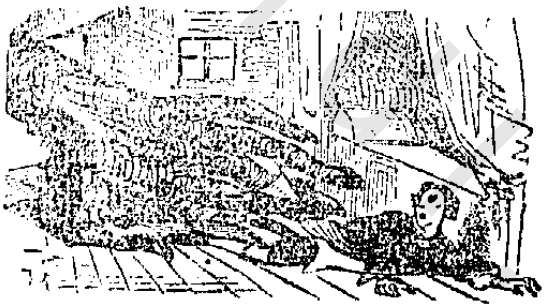

(جلفر في قبضة القرد)

أرفع سطح وجلس يستريح ويدس فى فمي شيئا مما كان قد خزنه فى شدقه كالأم تغذى طفلها بمضوغ الطعام ولما شاهد أهل القصر هذا الفعل قامت جلبة وضجة وصياح واستغاثة وجرى الخدم والعمال يأتون بالسلالم والمراقي ليختطفوني من يد ذلك الحيوان

الشقي الذى ما كان يدرك أحداقهم به حتى رماني من حضنه وولى الأدبار وسقطت أنا على طرف ميزاب وعندها تحقق لدى الهلاك العاجل أما من قذف الرياح أو من الدوار الذى اعتراني من تأثير هذا الارتفاع العظيم لأني كنت على بعد أكثر من ثلاثمائة ياردة عن سطح الأرض ولكن ساعدني حسن الطالع ووصل أحد الخدم إليَّ وأخذني فى جيبه ونزل بي سالما غير أن الرعب والدوار تركا أثرا ليس بالقليل فلازمت الفراش مدة أسبوعين الى أن تعافيت من كل ما أصابنى وقد أظهر جميع أهل القصر من الحنان والعطف ما أراني عظم مكانتي عندهم خصوصا الملك والملكة فانهما لم يلبثا يوما دون أن يرسلا من يعودنى وتنازلت الملكة بزيارتي جملة مرات ففرجت من آلامي بهذرها ومزاحها

ولما برئت وتعافيت مثلت بين يدى جلالة الملك أقدم جميل الشكر والحمد على تعطفه بالسؤال عنى أيام المرض فقعد يحادثنى بهذره المعهود ويبكتني بما أصابنى فى تلك الحادثة السيئة ويسألنى عن الافكار والخيالات التي جالت بخاطرى فى عالم

السماء لما كنت فى حضن ذلك القرد وكيف وجدت لذة الطعام الذي دسه في فمي فأخزاني هذا التعريض والتبكيت وقلت بشهامة وجراءة أرفع بهما من شرفى لو كنت جردت حسامي عند ما أظل ذلك الشيطان لصرعته فى الحال وتركته طريحاً يتخبط فى دمائه فقهقه الملك والسامعون حتى كادوا يسقطون من الضحك لهذا التبجح وشقشقة اللسان ولكني لم أكن اول المتبجحين من قومي المحذلقين بما ليس فيهم لاني بعد ما عدلت الى بلادي رأيت من الناس من يتعالى ويختال يريد ان يخرق الارض او يبلغ طول الجبال مع ضعته حسباً ونسباً وشرفاً وعلماً تلك هي خلة الضعفاء والاغبياء وشيمة الجهلاء والادنياء

الفصل السادس

تعطف جلالة الملك وغلا فى التلطف بي فأدناني منه وقرّبني وسمح لي بالمثول بين يديه أيام المقابلات الرسمية وجعلني أنيسه وجليسه ساعات فراغه وخلوته فاستطعت بذلك أن أشاهده فى جميع اطواره وأحواله وكثيرًا ما رأيته وهو بين يدي حلاقه أذ استولى عليّ الرعب والفزع حينما رأيته أول مرة ونصل الموسى على وجهه يغدو ويروح صاعدًا نازلاً كأنما هو منجل يحصد أعواد القمح في حقل تكاثف نباته والتفّ وتتكرّر هذه العملية مرتين فى الاسبوع كما هي العادة في تلك البلاد فتوسلت يوماً الى الحلاق أن ينعم عليّ ببقايا الحلاقة فأخذتها وتخيرت منها أمتن الشعرات وأعددت قطعة خشب ناعمة صقيلة ثقبتها بأبرة صغيرة وأدخلت فى كل ثقب شعرة حتى عملت منها مشطاً متيناً جاء في وقت الحاجة

اليه لأن مشطي تكسرت أسنانه وما عاد ينفعني فتيلاً ولم أجد في طول البلاد وعرضها من يستطيع أن يصنع لي مشطاً آخر بهذا القد الدقيق

ويحضرني في هذا المقام ذكرى أشياء أخرى صنعتها من شعر مشاطة الملكة فبعد أن جمعت عدداً عظيماً من ذلك الشعر دعوت اليّ نجاراً ماهراً كان مأموراً بقضاء كل حوائجي وأمرته أن يصنع أطاري كرسيين وأن يثقبهما من الظهر والمقعد ثم شددت أطول الشعرات وأمتنها الى هذه الثقوب ونسجتها على نسق مقاعد كراسي الخيزران وأهديتهما الى جلالة الملكة فأعجبت بهما وأكبرتهما أيما إكبار ووضعتهما في غرفتها الخاصة تعرضهما على كل من زارها ولقد طلبت مني أن أجعل أحدهما جلوسي فرفضت بكل اباء وحمية معلناً أني أوثر الموت على أن أدنس هذه الشعرات الشريفة التي كانت وقتاً ما تاجاً فوق رأسها

وكذلك صنعت من هذا الشعر كيساً للنقود رسمت عليه اسم الملكة بحروف الذهب وأهديته باذن منها الى حاضنتي

الصغيرة فجعلت فيه بعض الألاعيب التي كانت تصبو اليها وتميل كسائر البنات لانه لم يكن متيناً يتحمل شيئاً من نقودهم الثقيلة

وكان الملك مولعاً بالموسيقي شغوفاً بالغناء يأتي بالمغنين والموسيقيين إلى قصره ليجو صدره بشجى الأنغام وكنت أحياناً أحمل في صندوقي الى هذه الملاهي وأوضع على منضدة لأمتع السمع برقيق الالحان كما يزعمون ولكني ما كنت أقوى على تحمل ذلك الصوت المزعج لشدة هوله ودويه حتى كان يخيل اليّ عند سماعه أن جميع موسيقات جيش كامل اجتمعت وعزفت بكل قوتها تحت آذاني في آن واحد فاضطررت أن أنتقل بصندوقي إلى أقصى أرجاء الغرفة وأقفل جميع النوافذ والأبواب وأرخي الاستار حتى لا يصلني الصوت الا مخففاً لاتأباه حواسي الرقيقة

ثم أن الملك كثيراً ما كان يدعوني إلى غرفته الخاصة ويجلسني على أحد كراسي فوق مكتبته كي أكون محاذياً لوجهه ولتوقد ذهنه وثاقب فكره كان يتجاذب معي الحديث في صنوف السياسة وضروب المدنية الأوربية فانتهزت الفرصة

وعاتبته على عبارات الاحتقار التي كان يرمي بها قومي وسائر الدنيا المعروفة في بلادي وبينت له أن مثل هـذه الأفكار لا تلائم العقل والأدراك اللذين حاز منهما قسطاً وافراً لأن المشاهدة تقنعنا بأن مبلغ العقل لا يقاس بالجرم والجسم. وهل ينكر أن أطول الناس أبلههم وأسخفهم عقلاً ؟ ألم ينظر الى النمل والنحل ودأبهما على العمل ومهارتهما في الصناعة وذكائهما الفطري حتى فاقا كل الحيوانات الكبيرة الضخمة ورجوت أن يمكنني الحظ من القيام له بخدمة عظمى مع دقة جسمي التي جعلتني موضوع امتهانه واحتقاره فأبتدأ من ذلك الوقت يتحول عن رأيه الاول ورمقني بعين العناية والرعاية والاحترام ودعاني أشرح له نظام الحكومة الأنجليزية بأوضح بيان حتى إذا وجد من المحاسن ما يجمل تقليده لم يتوان عنه لحظة بالرغم عن شدة تمسك الملوك والأمراء بعاداتهم القومية

فانظر أيها القارىء في هذا الموقف العظيم وما عراني من الضعف والانهزام تلقاء ما طلب مني فلو كان لي بيان ديموستين أو فصاحة سيسرن لتغنيت بمديح وطني العزيز بأسلوب يوازي مبلغه

من التقدم والحضارة

ولكني اقتحمت الموضوع بهزة انشراح وطرب واخبرته أن بلادنا تتكون من جزيرتين تضمان ثلاث ممالك عظيمة تحت سلطان ملك واحد عدا مستعمراتنا في أمريكا وأن أرضها فى غاية الخصب وجوها في غاية الاعتدال ثم أسهبت في موضوع البرلمان وتركيبه من مجلسين أحدهما مجلس الأعيان وهو يضم بين جدرانه رجالاً من أعرق الناس نسباً وأشرفهم حسباً وأقدمهم مجداً . قد شربوا من مناهل العلوم عذبها وسائغها وتدربوا على أساليب الحرب وفنونه حتى أصبحوا بفضل تربيتهم هذه أشد الأعوان وأحكم النصحاء لملكهم وأمتهم وأمسوا جديرين بأن يشرعوا القوانين ويمثلوا العدل فى أعلى محكمة لا نقض بعدها ولا استئناف بهم تفتخر الأمة وفيهم تحتمي إذا ألمت الملمات وقد حافظوا بهذه الفضائل والخلال العالية على مجد آبائهم لم يتنزلوا عنهم دركة . ويشارك هؤلاء فى مجلسهم لفيف من نخبة علماء الدين انتقاهم الملك ووزراؤه بكل عناية وتبصر من أتقى الناس وأكثرهم ورعاً وأشدهم غيرة على الدين وأغزرهم

علماً بمقاصده وتأويله حتى صاروا كآباء للقسيسين وسائر أبناء الأمة

أما المجلس الثاني فيجمع عدداً من رجال الامة انتخبهم الاهالي بكل حرية واستقلال لسمو مداركهم وكفاءتهم وتفانيهم فى حب البلاد فهم بفضل هذا الاختيار زهرة الامة وروح حكمتها السامية حتى أصبح بهم هذا المجلس الرهيب أرقى مجالس العالم واكثرها هيبة وجلالاً واذا أضفت الملك الى هذين المجلسين تمثلت لديك الهيئة الشارعة فى البلاد

ثم انتقلت الى ذكر المحاكم وقضاتها أولي الفضل والنزاهة والاحترام الذين يتعهدون فى مناصبهم جميع المخاصمات والدعاوى القائمة بين الناس ويقدرون العذاب والثواب على قدر الاساءة والاحسان ثم طرقت نظام الخزينة ووسائط القصد في التصرف فى الاموال وأشبعت في الترنم ببسالة جيوشنا الظافرة وأعمالهم الباهرة فى البر والبحر وقدرت عدد السكان بنسبة شيعهم الدينية وأحزابهم السياسية ولم أغادر في هذا الوصف صغيرة ولا كبيرة الا أحصيتها حتى الالعاب والنزهة وغيرها من

الامور التى تخيلت أنها تثبت مبلغ عظمة بلادى ومجدها

وقد استغرق هذا الحديث اكثر من خمس جلسات لا تقل الجلسة عن ساعات عدة كان الملك يصغى فيها بكل تنبه والتفات ويدوّن من الملاحظات ما شاء ومن الاسئلة ما رأى أن يطرح عليّ فيما بعد وفي الجلسة السادسة شرع يناقشني الحساب ويسرد أنواع الريب والشكوك فى جميع حديثي فابتدأ بالأعيان وسأل عن وسائل تأديبهم وتهذيبهم في حداثتهم جسماً وعقلاً وعن الطرائق المتبعة في ايجاد الاعيان اذا بادت أسرة منهم عن آخرها والصفات التي يبنى عليها رقيّ الناس الى تلك المراتب وزعم انه لا يحظى بها الاّ من انتمى الى أمير أو غمر بنواله أو ملقد وزيرًا أو غادة من غادات القصر لها على الامير دالة أو كان القصد من ترقيته مظاهرة حزب يعمل على غير المصلحة العامة وارتاب في مقدرة هؤلاء الاعيان على فهم القوانين والشرائع فهماً يستطيعون معه أن يكونوا الملجأ الاخير في القضاء بين الناس وفى توفر الفضل والنزاهة فيهم الى هذه الدرجة القصوى بل رجح لديه أن الشح والمحاباة والفاقة تدفعهم

الى القضاء فى جانب ذوى المال الذين ينفحونهم بنوالهم فى سبيل نيل أغراضهم وقهر خصومهم

ثم مال على القسيسين وعلماء الدين الذين أغرقت في ذكر تفقههم وورعهم ورماهم بأشنع المعايب وأخس المثالب اعتقادًا منه انهم ما وصلوا الى هـذه الدرجات العلى ألا باستسلامهم أيام وضاعتهم وبعبوديتهم وتلاشي نفوسهم تحت أقدام الامراء والاغنياء الذين استخدموهم من قبل حتى أصبحوا تأثير العادة وهم أعضاء ذلك المجلس الرهيب متفانين في تنفيذ ما يطلبه منهم أولياؤهم الأولون وهم صاغرون

ثم انحدر على المجلس الثاني وسأل عن الوسائط التي تتخذ في انتخاب أعضائه وهل لا يوجد مجال للدخيل الغني السخي أن يؤثر في عامة المنتخبين بمـاله بدل فرط ذكائه واخلاصه فيفضلونه على عقلائهم وابطالهم ؟ وزاد ارتيابه من تزاحم الناس وتقاتلهم في طلب هذه المراكز التي تكلفهم فادح النفقات حتى كثيرًا ما كانت سبباً في خراب بيوتهم وأشغالهم وضياع ثروتهم ومالهم مع أنهم لا يحصلون منها على أجر يذكر فهـل

بلغ حب الوطن والاخلاص في خدمته هذا المبلغ المستحيل ؟ كلا بل أن منهم من يرمي الى استرداد ما أنفق وزيادة بتضحية مصالح الأمة عظيمها وعزيزها في سبيل ارضاء أمير مفسد غادر ووزارة خائنة خاسرة وغلا في الريبة والشك فى الموضوع بعبارات لا يجمل أن أعيدها الآن

أما موضوع القضاء والمحاكم فما زال الملك بي سائلاً وأنا أجيبه لأني لسوء الحظ كنت ملماً بدخائل الموضوع ودرسته درساً مستطيلاً لاشتباكي فى قضية طال أمدها حتى أشرفت من جرائها على الافلاس مع أن الحكم كان فى جانبي فسأل عن مبلغ الزمن والنفقات التي تقتضيها القضايا وعن المحامين والمداره ومقدار حريتهم فى الدفاع ؟ وهل يسمح لهم أن يترافعوا فى جانب الباطل ليطمسوا الحق أو يوقعوا الناس فى الظلم وهم يعلمون ؟ وهل للاحزاب السياسية والشيع الدينية تأثير فى القضاء والأحكام ؟ وهل تربى هؤلاء المحامون على حب العدل والحق أو كانت مهنتهم فقط درس القوانين والعادات الاهلية المحلية ؟ وهل لهم أو للقضاة يد فى سن القوانين وشرحها

وتأويلها حسب أهوائهم وأغراضهم شروحاً متباينة متناقضة في الموضوع الواحد مستشهدين على آرائهم بأحكام سابقة ؟ وهل يصيبون ثروة عظيمة من عملهم ويتقاضون أجوراً على مرافعاتهم ونشر آرائهم ؟ وهل يجوز انتخابهم في مجلس الامة ؟

ثم انتقل الى الخزينة واتهمني بالخطأ في الشرح لأني ذكرت أن ايراد الحكومة يبلغ خمسة أوستة من الملايين في السنة وعند ما ذكرت النفقات وجد أنها احياناً تربو على ضعف الايراد لأنه شدد عنايته بضبط المذكرات التي قيدها في هذا الموضوع رجاء احتمال الاستفادة منها في أحوال بلاده فلا يتأتى أن يكون قد غلت في حسابه واذا تجوز وسلم بصحة ما قلت فلا يتصور أن حكومة تستطيع أن تبذر في الاموال التي ابتزتها من رعاياها وتنفق أكثر من دخلها كسائر الأفراد واذا كان الامر كذلك فمن ذا الذي يقرضها ما تريد وكيف تتمكن من قضاء ديونها

وأظهر اندهاشه العظيم من حروبنا القاسية الغالية واتهمنا بأننا قوم أشكاس شريرون ميالون الى كثرة النزاع والمخاصمة

أو أننا نعيش بين جيران لا يؤمن لهم جانب ولا يحفظون الا ولا ذمة ولم يدرك الدافع لنا على مغادرة جزائرنا لغير التجارة أو الذود عن حياضنا بقوة الاساطيل المدمرة المهلكة حتى أصبح القواد ورؤساء الحرب عندنا اكثر ثروة من الملوك وبلغ الاستغراب عنده الغاية من قيام جيش دائم مأجور وسط السلام العام والحرية الشخصية بعد ان علم أن حكامنا هم أولئك الرجال الذين أنبناهم عنا بالانتخاب العام فلا نترقع منهم شرًّا ولا نوجس منهم خيفة وقال أن البيوت لفي حرز مكين اذا دافع عنها أصحابها بنفوسهم وأولادهم وأما اذا عولوا في سلامتها على حماية المأجورين والاشقياء فليس ببعيد أن ينقلب هؤلاء على أربابهم ويفتكوا بهم فتكاً ذريعاً

وقد استغرب وضحك من كيفية تقديري عدد السكان بارجاعهم الى الشيع الدينية والاحزاب السياسية وأنكر على الحكومة الاباحة بقيام حزب مذهبه ينافي المصلحة العامة . نعم انه لمن الظلم البين أن يقهر الناس على تغيير مذاهبهم وآرائهم مهما كانت ضارة فاسدة ولكنه من الضعف والوهن كذلك أن

يباح لهم نشرها وافشاؤها كما أنه لا يحظر على النـاس اقتناء السموم متى شاؤا ولكن يحظر عليهم نشرها و بيعها اتقاء الضرر

ولاحظ ضمن الألعاب والملاهي التي يتخذها السراة والاعيان عندنا اني ذكرت ألعاب المراهنة والخطر والمقامرة فاستفهم عن السن التي يبدأون بمعاقرتها والتي فيها يطرحونها . وعن الزمن الذي يقضونه فيها وهل يبلغ السرف فيها الى حد التأثير في ثروتهم ؟ وهل لا يشترك معهم في هذه الالعاب نفر من أدنياء القوم وسفهائها ينصبون حبائلهم وشباكهم لاستنزاف ثروة هؤلاء الأشراف واقتناصها فتمسى الدناءة مع المال سائدة على الشرف ؟ ولاحظ أنه لا بدَّ أن يتأب هؤلاء الأشراف المفلسون بعد ما قد أصابهم من الخسران وينقضوا على أثرابهم وأصحابهم السالفين يمكرون بهم وينصبون لهم نفس الشراك التي أوقعتهم هم أولا ولا يتخذون أولياءهم ولا أصدقاءهم الا من الأدنياء السفلة

وساورته الحيرة من قصص تاريخنا في غضون القرن الماضي وقال أنه لم يكن الاَّ مزيجاً من الخداع والعصيان والقتل

والذبح والثورة والاطراد ولا يمكن التدلي الى هذه النتائج الشائنة الا من الشره والتحزب والنفاق والخيانة والقساوة والغضب والجنون والكراهة والحقد والشهوة والضغينة

وفي جلسة أخرى راجع جلالة الملك خلاصة حديثي كله ورزن أسئلته بما قدمت من الجواب ثم أخذني بين يديه وربتني بحنو وانعطاف وألقى عليّ الخطاب الآتي الذي لا أنساه ما حييت ولا أنسى أسلوب القائه اذ قال

« أيها الصديق الصغير جرلدرج . لقد شعذت الالفاظ في مديح بلادك وأهلها ولكنك مع هذا كله أثبت لي أن الجهل والكسل والرذيلة كثيرًا ما تكون العدة الكافية التي تؤهل الانسان للعضوية في مجالسكم وأن القوانين يوكل شرحها وتأويلها وتطبيقها الى نفر من الناس تقضي عليهم أغراضهم ومآربهم الشخصية بأن يصرفوا كل مواهبهم وادراكهم في سبيل قلب الحقائق واشكال القوانين والاحتيال والمراوغة في تعطيلها ولقد استنتجت من جملة حديثك أن لديكم شيئًا من النظام ربما كان في بدايته مقبولا غير أن الفساد استولى عليه فطمس بعض

معالمه وشوه الباقي ولم يظهر من جميع حديثك أن للفضيلة تأثيرًا في ارتقاء الأفراد فلا هي تبلغ بالفضلاء الى رتبة سامية ولا العلم والورع ينيل الفقهاء تقدماً أو احساناً ولا يرتقي الجندي لبسالته واقدامه ولا القاضي لعدله وانصافه ولا العضو في مجالسكم لوطنيته وغيرته ولا الواعظ لذكائه وحكمته وأما أنت فلانك قضيت جل حياتك في السفر والاغتراب فلا أسيء ظني بك بل آمل أن تكون قد خلصت من بعض هذه المساوئ والمثالب غير أني لا أرتاب في أن قومك هم حشرات من أخس وأسرأ ما سرحت الطبيعة على وجه الارض »

الفصل السابع

لولا الصدق وشدة تمسكي به لما أفشيت هذا الجزء من قصتي ولا يحسبن أحد اني ارتضيت هذا القدح والتجريح صابرًا صاغرًا بل كثيرًا ما حاولت الاعتراض على جلالة الملك في انتقاداته المرّة الجارحة لصيت بلادي العزيزة وحسن سمعتها الغالية ولكنه كان يقلب كل اعتراض لى هزوا وسخرية حتى ندمت على ما بدر مني وفرط ندماً لا يقدر وزاد حرج الموقف ان أمير هذه البلاد شديد الكلف بالتساؤل شغوف بالاستطلاع فلم يترك لى مجالاً للانكار أو الكتمان ويأبى حسن الادب وعرفان الجميل أن أتمنع عن اجابة سؤله متى سأل فعمدت الى التحسين والتلطيف فى كل ما حدثت ولو جاوزت فى ذلك حد الصدق مجاراة لرأي الفيلسوف ديونيسيس اذ ينصح للمؤرخين أن يكتموا معايب وطنهم ونقائصه ويجهروا

بفضائله ومحاسنه الا أن الخيبة ساورتني في مسعاي بالرغم عن هذا التحفظ والاحتياط

ولذلك الملك بعض العذر في هذه الآراء الغريبة والافكار لانه عاش حياته منعزلاً عزلة تامة عن سائر بلاد الدنيا لا يدري ما ينتشر فيها من الآداب والعادات وباء ينتابه التعصب الاعمى وضيق الفكر اللذين اعمى اثرهما من بلادنا الراقية المهذبة فلا يجوز أن تعتبر آراؤه نهجاً يسير عليه سائر البشر

وهنا أورد حادثة تبرّر قولي وتشهد على سوء النتائج التي تنجم عن حصر التربية وقصرها اذ أردت مرة أن أتحبب الى جلالة الملك فأخبرته باختراع ذرور من مدة ثلاثمائة سنة أو أربعمائة تقريباً ان وقعت فيه شرارة نار التهب وتفرقع وقصف كالرعد ودك كل ما جاوره ولو كان جبلاً شامخاً ولو دس شيء منه في جوف أنبوبة من صفر أو حديد لقذف كرات من الحديد او الرصاص بقوة وعنف لا يقاومهما هدف فتبيد صفوف الجند وتدمر الجدر والاسوار تدميراً وتغرق السفن

العظيمة بما فيها من عدد وعدد واذا اتصلت هذه الكرات مع بعضها بالسلاسل قطعت السوارى والقلوع وشطرت الأناسي وأبادت كل ما صدمت على الأثر وفى بلادنا ندس هذا الدرور فى جوف كرات كبيرة من الحديد تقذفها بعد ذلك بواسطة الآلات على أى مدينة حاصرناها فتقلب الارض وتدمر الدور وتتطاير شظاياها في الفضاء فتهلك من صادفت في مجراها واني لعلى علم تام بتكوينه وتركيبه لا أكلفه في صنعه كبير نفقة وأستطيع أن أرشد العمال الى كيفية عمل الانابيب اللازمة بالاحجام المناسبة لهذه البلاد بحيث لا يزيد أكبرها على مائة قدم في الطول فاذا حشى عشرون أو ثلاثون أنبوبة بهذا الدرور وتلك الكرات لدمرت الاسوار والحصون فى جميع ملكه الواسع ولدكت العاصمة بأسرها ان صادف ان تألبت عليه وحاولت نبذ سلطانه ولم أقدم على مثل هذا العمل العظيم الهائل الا قياماً بواجب الشكر والولاء على ما أولاني من العناية والرعاية

فاستفظع الملك تلك الآلات المروعة الجهنمية التي

وصفتها واستنكر مني التحدث عنها بمثل هـذه الجراءة والاسترسال حتى هان عليّ وأنا تلك الحشرة الحقيرة الدنيئة أن أذكر سفك الدماء ودك المدائن وكل تلك الاعمـال البربرية الوحشية دون أن يقوم فى نفسي الخسيسة شعور برأفة أو تأثر برحمة وقال انه مع شدة شغفه بالاكتشافات الحديثة وادخالها في بلاده فانه يؤثر أن يفقد نصف ملكه على الموافقـة على ما عرضت وأمرني ألا أفاتحه في ذلك الموضوع مرة أخرى والا عرضت حياتي للهلاك

وليس لهذا الاستبشاع من سبب الا ضيق الفكر وقصر النظر لأنه من المدهش أن أميرًا امتاز بكل الصفات العالية التي تدعو الى التبجيل والمحبة والاحترام واشتهر بالعزم والحزم والحكمة البالغة وسعة الاطلاع والحذق المفرد فى السياسة حتى كادت رعيته تعبده يطرح فرصة ساقتها اليه الظروف لتثبيت نفوذه وسلطانه فى رقاب العباد وأموالهم بسبب أنفة ورقة وهمية لا يمكن أن يتصورها عقلنا الا وربي ولا أريد بهذا القول أن أحط من قدر الرجل وأنقص من الخلال الجميلة التي طبع

عليها ولكن هي الجهالة أفانين السياسة التي لم يشاؤا أن يرتبوها بشكل علمي فلسفي حتى أن الملك ازدرى بقومي ازدراء مرًّا لما حدثته بأن السياسة ألفت فيها آلاف المجلدات محتجاً بأنه يكره بل ويمقت كل أنواع التلبيس والتلاعب والدسائس ان صدرت عن أمير أو وزير بل رأيه أن ينحصر تدبير الحكومة في دائرة ضيقة لا تتعداها من الحكمة والحزم والعدل والرأفة والفصل العاجل في جميع القضايا المدنية والجنائية ومن بعض أمور أخرى بديهية لا تستحق الذكر ورأيه كذلك ان العامل الذي يستطيع أن ينبت سنبلتين من القمح أو عودين من الحشيش في مكان الواحدة لا أفضل وأنفع من عالم السياسيين جمعاء

ومعارف هؤلاء القوم ناقصة قاصرة لاتشتمل الا العلوم الأخلاقية والتاريخ والشعر والرياضة التي تخرجوا فيها ولكنهم لا يدرسون من الرياضة الا ما كان له تأثير حسي في الحياة العملية من أصلاح أسباب الزراعة والصناعة الآلية التي نرمقها في بلادنا بعين الاحتقار والأزدراء أما الأبحاث المعنوية كماهية

الوجود والاعتبارات الوهمية وما وراء الطبيعة فلا تستطيع عقولهم أن تدركها

وقوانين هذه البلاد موجزة لا تزيد ألفاظ القانون الواحد عن عدد حروف المعجم وهي اثنان وعشرون حرفاً وقل أن يصل أي قانون الى هذا الحد النهائي وعبارة القوانين في غاية الاختصار والجلاء حتى أن الخيال لا يصل بهم ألى اكتشاف أكثر من تأويل واحد للعبارة الواحدة ومن كتب شرحاً أو تفسيرا لأى قانون كان جزاؤه القتل . والفصل في القضايا المدنية والجنائية في غاية البداوة والبساطة لأن السوابق التي يتمثلون بها في كلتا الحالتين قليلة جداً

والطباعة عندهم منتشرة من الأزمنة الغابرة كانتشارها في الصين ولكن مكتباتهم لا تحوي من الكتب الا عدداً قليلاً حتى أن مكتبة الملك وهي أشهر المكتبات وأكبرها لا تشتمل على أكثر من ألف مجلد وهي مصفوفة في بهو طوله ألف ومائتا قدم أبيح لي استعارة ما شئت منها وجعلوا لي آلة تشبه سلماً مزدوجاً ارتفاعه خمس وعشرون قدماً وعرضه خمسون وإذا

أقيم كان بعده عن الجدار عشر أقدام فكلما أردت القراءة نصبوا الكتاب قائما على الجدار وجاءوا بهذا السلم أمامه فأصعد إلى أعلى درجة منه ولا أزال أتمشى على عرضه حتى آتى على آخر السطر ثم ارتد الى الجهة الأولى نازلا درجة لكل سطر وهكذا حتى أصل إلى نهاية الصفحة فأكون على الأرض وأقبض على الصحيفة لقلبها على وجهها الثاني بكلتا يدى لأنها في سمك الخشب وفي صلابته ولكنها لاتزيد عن ثماني عشرة قدماً أو عشرين في الطول

أما أسلوبهم في التحرير ففصيح جلى ليس فيه تخنث ولا خلاعة خال من زخرف القول ورشاقته وهم يمقتون الأطناب أو التلون والتفنن في العبارة كما تبينت عند قراءة العدد الكبير من كتبهم خصوصاً كتب التاريخ والأخلاق ومن ضمنها كتاب كان في حجرة حاضنتي الصغيرة أهدته اليها مربيتها التي نشرت تصانيف في الأخلاق والدين والكتاب يبحث في مقدار ضعف الجنس البشري في هـذا الكون ولا انتشار له الا بين العامة والنساء فعن لي أن أفحص عما يقول القوم في مثل هـذا

الموضوع فوجدت المؤلف تناول كل فنونه التي اعتاد علماء الأخلاق عندنا أن يخوضوا فيها وشرح مقدار دقة الانسان وحقارته وضعفه الطبيعي في هذا العالم حتى أنه لا يستطيع أن يدفع تقلبات الهواء ولا عدوان الوحوش لا ن من الحيوانات ما زاد عنه قوة وجسماً ومنها ما فاقه سرعة وحركة ومنها ما زاد عنه تبصراً وعملاً وتململ وتضجر من أن الطبيعة أخذت تنحط وتتراجع فى هذه العصور المتأخرة فضعفت الاجسام وتضاءلت عن الزمان الغابر ومن رأيه أن الجنس البشري كان في مبدأ الخلقة أكبر جسماً وأعظم خلقة وأشد قوة وأطول عمراً كما يؤثر فى التاريخ فكان منه المردة والاعوان مستشهداً بالعظام والجماجم الهائلة التي استخرجت من جوف الارض فى كثير من النواحي والبقاع لا ن ناموس الطبيعة يستلزم ضخامة الاجسام وقوتها حتى لا يكون الانسان عرضة للهالك من أقل نازلة تنزل به كوقوع حجر عليه أو سقوطه هو فى الماء واستنتج الكاتب من هذا البحث كثيراً من المواعظ المفيدة فى تقويم الاخلاق لا حاجة لنا بذكرها الآن غير أنى أدركت أن الانسان هو هو

فى كل بقاع الارض لا يرضى بحاله وقوته بل يتململ ويتضجر وكلما انحط وتقهقر جسماً أو عقلاً صاح وولول ونادى ثبوراً ورمى الطبيعة بأنها السبب فى نقصه وانحطاطه والحق الذي لا شائبة فيه أن مثل هذه الشكوى لا يبررها عقل ولا يقوم عليها دليل بل أن الرقى أو الانحطاط والقوة أو الضعف فى يد الانسان إذا شاء ارتقي وإذا شاء وقع فليأخذ المرء من نفسه لنفسه حتى لا ينزل به الشر الذي يخشاه

أما فى الحرب فلهم جيش يبلغ عدده مائة وستة وسبعين الفاً من الرجالة واثنين وثلاثين الفاً من الفرسان وهو مؤلف من الصناع والعمال فى العواصم والمدائن ومن الفلاحين فى القرى والريف كل فريق تحت أمرة سراتهم وأعيانهم ولا اجر لهم ولا راتب وقد تكملوا فى النظام والدراية بالفنون العسكرية والحربية اذ كل فلاح تحت امرة سيده الذي يشتغل فى حقله وكل حضري تحت أمرة سراة مدينته الذين ينتخبون لتولي القيادة بالاقتراع كما هو حاصل فى مدينة البندقية

وقد شاهدت جنود العاصمة وهم يتمرنون على أعمالهم

العسكرية فى ميدان فسيح مساحته أربعون ميلاً وعددهم لا يزيد عن خمسة وعشرين الفاً من المشاة وستة آلاف من الفرسان غير أني لم استطع عدهم بسبب اتساع المجال الذى كانوا يتمرنون فيه . أما طول الفارس وهو على جواده فيبلغ مائة قدم ولقد دهشت وبهرت لما رأيت هذا الجمع من الفرسان يجردون سيوفهم عند نداء قائدهم فيخيل الى الرائي أن عشرة آلاف ومضة من البرق اندلعت فى آن واحد من جميع أرجاء السماء.

ولم أدر ما حملهم على هذا الاستعداد العظيم فى الحرب لأنهم منعزلون عن بقية الدنيا لا اتصال لهم بها ولا ارتباط ولكنهم أخبرونى أن البلاد كانت فى حالة اضطراب مستمر وحروب داخلية عديدة منشؤها حب السلطة والاستبداد بها تارة من الملوك وطوراً من السراة والاعيان وأخيراً قام الاهالي كافة قيامة واحدة طالبين رد حريتهم التي غلبوا عليها وسلبتها منهم يد الظلم والاجحاف فصالحهم جد الملك الحالي بعد ان أقام العدل والانصاف وأوقف كل فريق عند حده وحقه

باتفاق شامل ورضاء عام وبقي الجند بعد هذا يصدعون بما يؤمرون راضين مرتاحين

obeikandl.com

الفصل الثامن

كان قلبي يحدثني بأنه لا بدّ وأن يهيئ الله لي الفرج والخلاص من هذه البلاد ولو أن الخيال لم يستطع تصوير الواسطة ولا الفكر تدبير حيلة مآلها النجاح لان السفينة التي جئت فيها كانت اول ما قذف البحر على شاطىء هذه البلاد ولو جاءت أخرى لما أفادتني لان الملك أمر عماله باحضار كل سفينة قاربت السواحل بما فيها من الركاب والملاحين حتى يمكنه أن يأتيني بزوجة من بني جنسي أسكن اليها لعلي أخلف له نسلاً يأتي من بعدي يضعونه في الاقفاص كالطيور الداجنة وتتناقله الايدي فيما بعد بالبيع والشراء في سائر الارجاء كأعجوبة تقتني ولكني أوثر الموت العاجل قبل أن يتخذ بنو جنسي هزؤاً وسخرية عند هؤلاء الاقوام مع ما هم عليه من حسن المعاملة ولين الجانب ومع أني عوملت بكل عطف وحنان

وكنت مقرباً من ملك وملكة عظيمين ومحبوباً لدى جميع أهل القصر الا أن هذه المعاملة كانت مبنية على منزلة يأباها الشمم والشرف الانسانى وزد على هذا انى كنت أصبو وأحن الى رؤية امرأتى وأولادي الذين نأيت عنهم والى بني جنسي ومواطني الذين يحلو لي حديثهم ونحن أنداد فى الجسم والقوة والى الشوارع والحقول التي كنت أمشي فيها بكل جراءة ورباط جأش لا أخشى أن أوطأ تحت الأقدام كضفدعة أو جرو صغير ولكن شاء الله ألا أن يكون الخلاص أقرب مما كنت أرجو وأتوقع وبواسطة عجيبة فريدة المثال أذكرها هنا بكل اسهاب

فى غضون السنة الثالثة من حلولي بهذه البلاد سرت أنا وحاضنتي فى حاشية الملك الى الأقطار الجنوبية فحملوني فى صندوق السفر الذي وصفته فيما مضى وقد وضعت فيه ارجوحة مشدودة الى جدر الصندوق بأحبال من الحرير حتى لا تؤلمني زعزعة الجواد الذي كان يحملني وانا نائم وجعلت فى سقف الصندوق كوة لتجديد الهواء لها غطاء من الخشب يفتح ويقفل بانزلاقه على سقف الصندوق

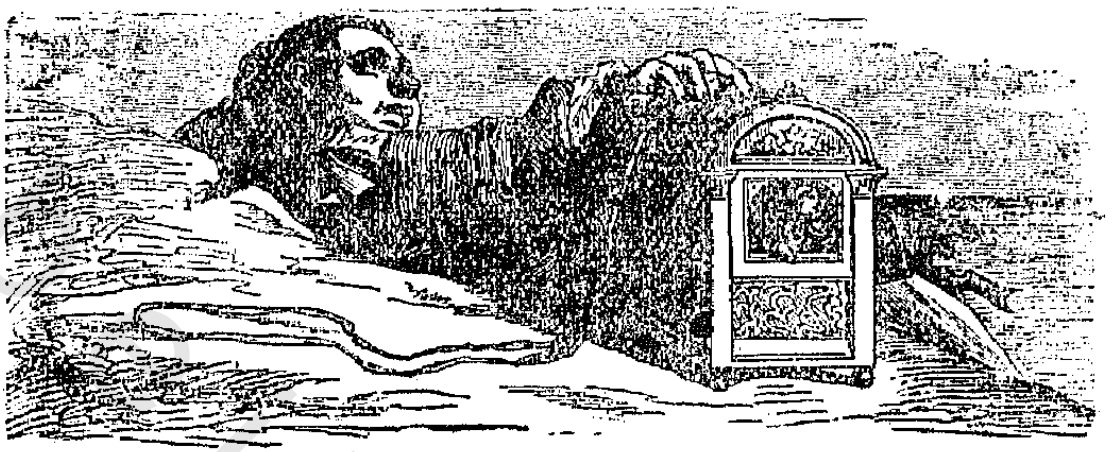

(صندوق جلفر)

ولما بلغنا غايتنا رأي الملك أن يقيم أياماً قلائل فى قصر له بالقرب من مدينة فلانفلاسنك التي تبعد عن البحر بمقدار ثمانية وعشرين ميلاً وكنت أحس إذ ذاك بتعب شديد من جراء السفر وبزكام لازمني عدة أيام وما كانت حاضنتي أحسن حالا بل اضطرت أن تلازم فراشها من شدة ما أصابها من الكد والمشقة وحينما استنشقت ذلك النسيم البحرى العليل هاجت عواطفي وهمت بمشاهدة البحر وتقبيل ثرى شاطئه لاني كنت أشعر أن خلاصي سيكون من جهته فادعيت اشتداد المرض وحاجتي الى استنشاق هواء البحر برفقة خادم أمين كان يوكل له أمر العناية بي أحياناً فوافقت حاضنتي بعد كثير تعلل

وتمنع وتحذير وتشديد وبكاء وتحيب كأن الله الهمها ما سيقع في هذه الرحلة من الامور فحملني الولد مسيرة نصف ساعة نحو الصخور التي على شاطىء البحر وهنا طلبت منه أن يحط عنه الصندوق وفتحت النوافذ ورمقت البحر بنظرات ملؤها الكآبة والهيام فاستولى على الهم والغم ودخلت الى حجرتي لأنام بعد أن دعوت الخادم فأقفل النوافذ حتى لا يؤذيني الهواء البارد وغرقت في سبات عميق

ويظهر أن الخادم ظن المكان آمناً مطمئناً فصار يتمشى بين الصخور يجمع بيض الطيور البرية لأني كنت رأيته من قبل يبحث عنها وبينما أنا نائم اذ جذب حبل الصندوق بعنف بشتى من نومي مذعوراً وصعد الصندوق نفسه في السماء بسرعة مزعجة كادت ترميني عن ارجوحتي ثم هدأ السير بعد قليل فزعقت وصرخت وصحت وولولت ولكن بغير جدوى وتدليت من النافذة فلم أبصر الا السحاب والسماء والماء وسمعت صوتاً كرفرفة اجنحة الطيور فأخذ يتمثل أمامي ما قد حصل إذ اختطفني نسر عظيم في منقاره يريد أن يسقطني فيهوى بي

الصندوق على الصخور فينفجر ويخرج ما فيه فيأكله طعاماً سائغاً كما يفعل عادة بسلحفاة البحر لان حاسة الشم عنده قوية جداً

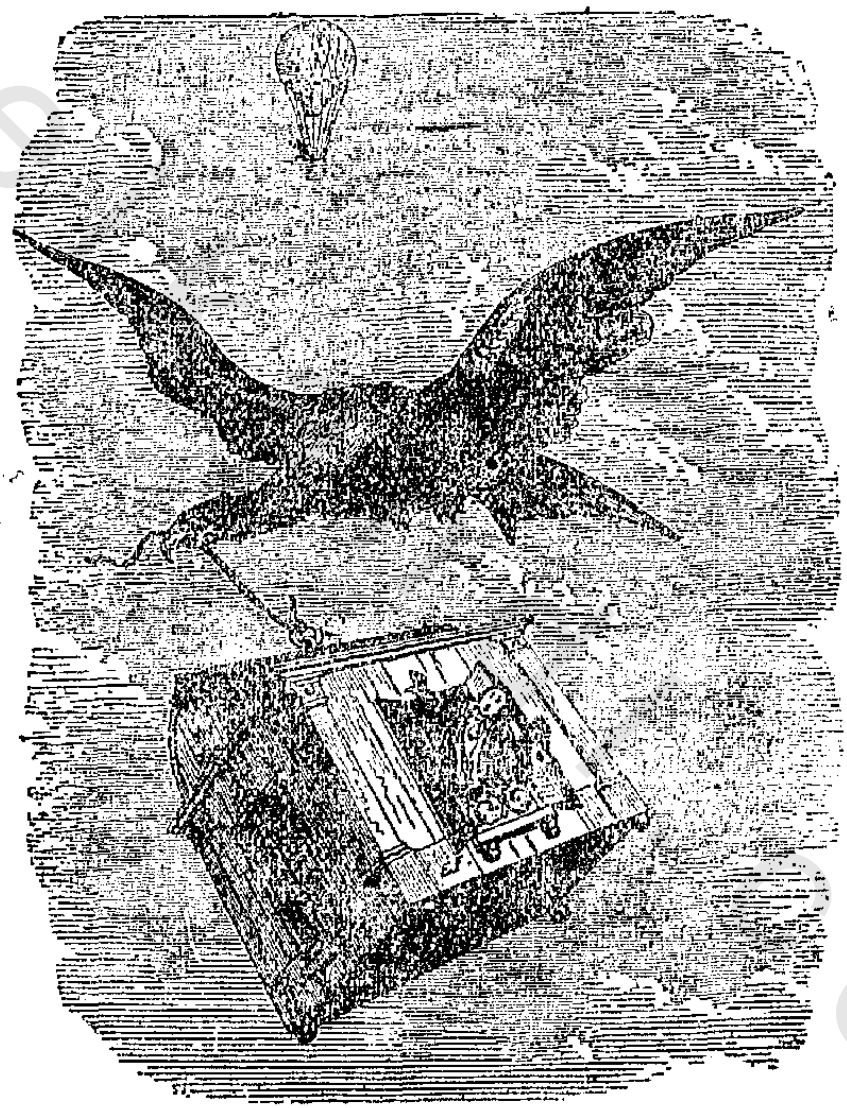

(جلفر يصعد في السماء)

يستطيع أن يعرف بها فريسته من بعد سحيق ولو كانت مخبوءة في حرز مكين

ولم يمض الا القليل من الزمن حتى شعرت أن الرفرفة ازدادت سرعة وقوة وأن الصندوق أخذ يتزعزع ويتقلب كريشة فى مهب الريح وسمعت ضربات وصدمات عنيفة نحو النسر (لأنى لم أشك في أن خاطفي نسر) وبعد قليل شعرت بأن الصندوق شرع يتنازل ويتساقط الى أسفل بسرعة لايمكن تصويرها ثم اصطدم بدوى وقصف يقرعان الاسماع وعمني الظلام دقيقة كاملة وبعدها ارتفع الصندوق حتى أبصرت النور من رأس النافذة فعلمت حينئذ أنى قد سقطت في البحر والصندوق طاف على وجهه لم يغمر منه الا مقدار خمس أقدام تقريباً لثقله وما فيه من أدوات وآثاث

وسبب سقوطي وسط هذا البحر كما اظن ان النسر الذي اختطفني من البر هاجمه اثنان أو ثلاثة أخر طلبا فى قنص فريسته حتى اضطر أن يرميني من فيه فى الدفاع عن نفسه ولولا صفائح الحديد التي تجمع زوايا الصندوق لتفتت فى سقطته على الماء وكذلك المفاصل فأنها كانت مكينة متينة والباب بحري فى قناة ينزلق طالعاً نازلاً لا يفتح كالابواب العادية وبهذه

الوسائط لم يدخل في الصندوق من الماء الا شيء قليل

ثم نزلت عن أرجوحتي وفتحت النافذة العليا التي في السقف كي يتجدد الهواء لأنه سخن إلى درجة لا تطاق وبقيت بعد ذلك تساورني الهموم والأفكار وتمنيت ان أكون بين يدى حاضنتي التي فصلتني عنها المقادير في ساعة واحدة بهذا البعد السحيق والبون الشاسع . ومع ما كنت فيه من الشقاء والخطر سرح خيالي نحوها وهي في ألمها وشجنها من جراء النوى والبعاد ومن غضب الملكة عليها ونبذها وأطرادها وضياع مستقبلها الزاهر ثم عاد الخيال من مسرحه وأخذ الفكر يجسم مبلغ الخطر الذي وقعت فيه إذ كنت في صندوق مغلق له نوافذ من الزجاج لو تكسرت إحداها لكانت نذيرة الموت والغرق ولكن الحظ رافقني والعناية رمقتني فلم يدخل الا ماء قليل من ملتقي الألواح فسددته ما أستطعت وزال والحمد لله ذلك الخطر العاجل وبقي أمامي الموت البطيء من الجوع والعطش وأنا محبوس في صندوق مغلق وسط بحر عظيم

ولكن العناية ما زالت تلحظني وتهيء لي الأسباب إذ

شعرت بأن الصندوق ابتدأ يتحرك مجذوبا من حلقاته الخلفية حتى اصطدم في شيء صلب فانبعثت فيّ روح الأمل وفككت أحد الكراسي ووضعته تحت الكوة العليا ووقفت عليه واستغثت واستنجدت بأعلى صوتي وبكل اللغات التي أعرفها وربطت منديلي إلى عصا كانت عندي ورفعتها إلى السماء حتى يراها الناس ويعلموا أن أنسانا رماه سوء الطالع في هذا الصندوق

ولكن ضاع تعبي عبثاً واصطدم صندوقي ثانية في شيء ظننته صخرا فتقلب وتمايل واضطرب ثم شعرت برنين سلسلة أو جنزير وبارتفاع الصندوق في الهواء فرفعت منديلي من الكوة مرة أخرى وزعقت حتى بح صوتي فسمعت وطء أقدام وصوتاً ينادي باللغة الانجليزية « أجيبو يامن في هذا الصندوق » فأجبت بأني رجل انجليزي ساقه سوء الطالع إلى هذا الخطب المدلهم وتضرعت بكل قلبي وجوارحي أن يخلصوني من هذا السجن الأليم فقال لا خوف عليك فأن الصندوق قد شد إلى السفينة وسينزل اليه النجار فيكسر أحد ألواحه فتتمكن من الخروج فقلت لا حاجة الى هذا العناء والتأخير فأن أحد الملاحين

يمكنه أن يقبض على الحلقة العليا ويشد الصندوق الى السفينة ويضعه في حجرة الربان فظن بعض السامعين أن قد أصابني مس أو جنة وضحك الآخرون هزؤا وسخرية ولم يدر بخلدي في تلك الساعة أني بين قوم من بني جنسي يماثلونني في القد والجسم ثم نزل النجار وكسر الخشب وأدلوا سلماً صعدت فيه وحملوني في جوف السفينة في حالة من الضعف سيئة

وقد استولى الدهش والاستغراب على جميع الملاحين عند رؤيتي وسألوني أسئلة عديدة متباينة لم أشأ حينئذ الاجابة عليها تكبرا مني واستخفافا بقوم تمثلوا لعيني المسحورة كأنهم نفر من الأقزام بعد ان اعتادت رؤية الأجرام العظيمة الهائلة التي غادرتها ولكن الربان (المستر توماس ويلكوكس وهو رجل كريم من أهالي شبرويشير) رثى لحالي وما رآه فيّ من الضعف فأخذني الى حجرته وسقاني شرابا مقويا وأرقدني في مرقده كي أستريح بعد كل ما قاسيت وعانيت ولكني قبل أن أنام أفهمته أن صندوقي يحوي أشياء ثمينة لا يجدر التهاون فيها أو فقدها ففيه أرجوحة وفراش وكرسيان وخوان ومكتبة

وجدرانه منجدة بالقطن والحرير ولو أمر أحد الملاحين أن يحضر الصندوق لأريه كل ما عندي من المتاع النفيس فظن الرجل أنى لا أزال أهذي من الجنون ووعد أنه يفعل ما طلبت حتى يسكن من جأشي وعلمت فيما بعد أنه أنزل بعض الملاحين فى الصندوق فاستخرجوا جميع ما فيه حتى القطن والحرير ولكنهم اجتذبوا الكراسي وبقية المتاع بعنف شديد لقلة فطنتهم وعدم معرفتهم كيف ركبت ثم تركوا الصندوق فى البحر بعد ان جردوه من كل شيء ظنوا فيه نفعاً لهم فغرق من كثرة الثقوب والخروم وحمدت الله على أنى لم أشاهدهم وهم يعبثون بصندوقي ومتاعى لأن المنظر يحرك فىّ عواطف وآلاماً كنت أوثر أن أنساها

وفي نهاية الساعة الثامنة مساءً قمت معافى مرتاحاً بعد ان نمت عدة ساعات نوماً مضطرباً بالاحلام المزعجة فدعانى الربان للعشاء وجعل يجاذبني الحديث والسمر لما رأى أنى سكنت وثبت بصري وجأشي

وما زالت السفينة سائرة بنا الى الجنوب زمناً طويلاً

حتى وصلنا الى جزيرة هولاندا الجديدة فمالنا نحو الغرب ثم الجنوب الى أن بلغنا رأس الرجاء الصالح ورسونا على البرّ مرّة أو مرتين طلباً للمون والماء ولكنى لم أفارق السفينة الا عند ما وصلنا الى انجلترا في اليوم الثالث من شهر يونيو سنة ١٧٠٦ بعد تسعة شهور من نجاتى فعرضت على الربان أن يبقى متاعي لديه رهناً على نول السفر ولكنه رفض أن يأخذ عليه أجرا فودعته وانصرفت بعد أن واعدنى بأن يزورنى فى بيتى بردريف واقترضت منه خمسة شلنات أكتري بها حصاناً ودليلاً يوصلنى الى بلدي

وكنت أثناء السير أستصغر المنازل والاشجار والبهائم والناس أنفسهم وأصرخ وأزعق كي يهربوا من طريقى لئلا أطأهم تحت أقدام حصانى كما كنت أفعل فى ليليبت ولما بلغت داري وفتح الخادم الباب انحنيت كثيراً حتى أستطيع الدخول لقصر الباب فى عيني وجرت زوجتي تعانقنى فانحنيت حتى وصلت الى ركبتيها ظاناً أنها لا تبلغ فمي فتقبله وركعت ابنتي تسألنى الدعاء فلم أبصرها الا بعد أن قامت واقفة . وتمثل

الخدم وبعض الضيوف كأنهم أقزام وأنا مارد بينهم حتى ظنوا أن قد أصابتني جنة أو خبال . ومن هذا يظهر جلياً مقدار ما للعادة في النفوس من التأثير

وبعد أيام عدت الى رشدي وعشت مع أسرتي في هناء وسرور غافلين عما سيأتي به القدر من الأمور .